

شروت أباطة

شروت أباطة



نخبة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
الفجالة - القاهرة

نِكَامُ رَبِّهِ الْإِمْضَانِ جِج

تأليف
شروت أباطة

مكتبة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
الغزالة · القاهرة

القارعة

فى شارع من أكبر شوارع الزمالك رجل فى الحلقة الخامسة من عمره يقف فى جدية واضحہ يشير للسيارات لتسير أو يشير لها أن تقف وعلى مبعده خطوات منه يقف شرطى المرور ولكنه لا يخفل به ولا يكثر به وكأنه غير موجود .

والرجل مقتنع كل الإقناع أنه لولاه لتوقفت حركة المرور فى الشارع وهو واثق أنها إذا توقفت فى الشارع توقفت فى القاهرة كلها وأحسب أنه على يقين أن هذه الحركة إذا توقفت توقف العالم عن الدوران وكفت الحياة عن الحياة .

وتنظر إليه فتدرك أنه مقتنع غاية الإقناع أنه لولا يده التى يشير بها للسيارات أن تسير ما سارت وأن هذه السيارات بسيرها تسير الأيام جميعاً . وأحسده فقد اطمأن إلى أهمية وظيفته فى الحياة وارتاح إلى طمأنينته غير حافل شأن الناس جميعاً اقتنعوا بالحقيقة الثابتة فى يقينه أم لم يقتنعوا .

وما قيمة رأى الناس مادام هو واثقاً من حقيقة العمل الخطير الذى يقوم به . وأحسب أنه لو كان على إلمامه بالشعر لوضع لافته فوق رأسه تحمل بيت المتنبي الخالد يرد بها على نظرات الراجلين والراكبين على السواء ويتحدى بها علامات الإستغراب التى ترسم على وجوه البشرية فى الشارع الذى يحرك منه الكون جميعاً .

وهكذا كنت فى أهلى وفى وطنى

إن النفيس غريب حينما كانا

٤ -

أما الرجل فواضح المعالم و الحقيقة من أمره لاشك فيها ولا اختلاف حولها لأنه يعرض أمر نفسه على الناس أجمعين . وكلهم واثق من حقيقته . وبعضهم يشفق عليه وتأخذه به تلك اللمسة السماوية التي أودع الله منها قبساً في ضمائر بعض الناس . فإذا قدر لك أن تقف بعض الحين تراقبه لرأيت ثم يداً تمتد إليه من حين إلى آخر تمنحه همسة من رحمة متمثلة في مبلغ من المال الله وحده يعلم مقداره

ويأخذ هو ما تمنحه له السماء في كبرياء صاحب الحق يتسلم حقه ويرفع يده بتحية فيها إباء ويستأنف عمله من إدارة حركة الكون .

هذا رجل - فيما أقدر - مرت به ألوان من تقلبات الحياة وخاض غمرات الأمواج حتى وجد شاطئه في مكانه هذا والتمس عنده مأمنه من الحياة فأمن واستقر . والتقط اللاهث من أنفاسه المفزعة . وتصلح مع الحياة ووثق أنها تصالحت معه . فهو لا يسيء إلى أحد . ولا يعاب بمن يحاول أن يسيء إليه وإنما ينصرف عنه انصراف الكبار عن هو الصغار .

تري كم في حياة الناس من أمثال هذا الرجل ولا يعرف الناس عنهم شيئاً تسترهم الحجرات ويتخفون وراء غلالات رقيقة من علم ساذج استطاعوا بها أن يستخفوا عقول الكبار ويجعلوهم يتوهمون أنهم أصحاب ثقافة أو أصحاب علم أو أصحاب دراية وهم من هذا جميعاً أبرياء . وحين يتزأج الغرور من الضائعين بالجهل ممن يملكون تقسيم الوظائف يثب إلى الكرسي أمثال هذا الرجل الواقف في شارع من شوارع القاهرة .

أما هو فجرد من السلطان مقصى عن إصدار الأوامر . وأما هم فيبدهم أدوات يملكون بها أن يصدروا الأوامر أو يصدروا الأحكام في شئون الحياة . وفي الميدان الذي أعمل فيه أرى رأى العين من يحسب

نفسه أديباً لم تجد بمنزلة الأزمان في قديمها وحديثها وأراه رأى العين شأنه شأن المسكين الذى يظن أنه يدير الكون من شارع في القاهرة يظن أنه لولاه ما وجد الأدب العربى كله .

والأدب ميدان قاس عنيف لا يقبل الهزل ولا يعترف بالدجل ولا بد للأديب من إنتاج . ولا بد أن يكون هذا الإنتاج منفرداً حتى يبدأ الأدب في تقويم هذا الأديب وإلقاء النظر إليه والحكم عليه إن كان يستحق أن يكون أديباً أو لا يستحق .

أما هؤلاء الذين اطمأنوا إلى مكاتبتهم الأدبية فأنا أعرف بينهم من ليس له إنتاج على الإطلاق وأعرف منهم من له قصة قصيرة أو بعض أقاصيص لا تزيد على أربع أو خمس .

ولكن هؤلاء الأصدقاء يملكون أن يرموا بهم إلى كراسى مناصب فإذا هم في وقاحة أو إن شئت الكلمة الدقيقة فقل في فجور يطلقون أحكامهم الجامعة المانعة على الجبال الرواسى والقمم الشائخات ولا يحاول واحد منهم أن يسأل نفسه ماذا قدمت أنا حتى أحكم على الآخرين ، ولكن النفس مولعة بخداع نفسها وهذا السؤال لا يرد على تفكيره .. وهل هو صاحب تفكير حتى يرد عليه سؤال .

لقد حكم وحكمه نهائى بلا حيثيات وبلا معارضة ولا استئناف لأنه مثل الرجل الذى يحرك الكون ولا يحفل بشأن الناس وليس يعنيه أن يقولوا عنه فاجر يدعى لنفسه مالىس له ، ويضع ذاته في المكان الوحيد الذى ينبغى له أن يختفى منه .

أما الرجل الذى يحرك المرور والكون فقد استمد وظيفته من طغيان

الأيام عليه ومن قسوة الزمان على مجرى حياته ومن عنف المقادير بإنسانيته .

أما هؤلاء الآخرون فقد خادعوا أنفسهم ووجدوا من المهازيل من يقتل أن يكون مخدوعاً فتصدوا للحكم على الناس ووجدوا كلامهم يجمع ويطبغ وينشر على الناس .

أى زمان قدر الرحمن أن نعيش فيه حتى نرى ما نراه فنشهد الطيب الأخرس والعالم الجاهل والأديب بلا أدب له والشاعر ولم يقل شعراً والناقد دون قراءة ما ينقده وإذا تركنا الأدب وألقينا نظرة إلى شتى مناحي الحياة وجدنا كثيراً من مناطق النفوذ يسودها الظلام القائم حين كان ينبغي لها أن تكون حافلة بالنور . وإذا أنت حملت مصباحاً وألقيت النظر على شاغلها لوجدتهم جميعاً من هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم فى مناصب قد تصلح لأى إنسان إلا لهم والجريمة ليست جريمتهم وحدهم وإنما هى جريمة فيها شركاء عديدون . والشريك فى القانون يعاقب بعقوبة الفاعل الأصلى أما الشريك فى هذه الجرائم فهو فى الحقيقة هو الفاعل الأصلى والعقاب واقع عليه أولاً ثم هو واقع على من ولاهم ما لا يستحقون من رأى الناس ثم هو واقع عليهم وعلى غيرهم من الاضطراب والمهازيل والفوضى التى تسود مواقعهم وتسخر منهم كل سخرية وتحقر شأنهم كل احتقار ... ويومئذ تكون القارعة وما أدراك ما القارعة ... إن أمه لاشك يومئذ هاوية وما أدراك ما هى ؟

اللهم ياذا الرحمة والعدل ويامالك الميزان حين ينعدم الميزان إليك وحدك نضرع وبك وحدك نستجير ... سبحانه .

فلا دنيا ولا آخرة

أليست الخيانة والطغيان والمجازر والحروب والاعتداء على الحياة وتمزيق البشرية كلها كانت وليدة الطمع والجشع ورغبة الإنسان اللاهبة المحرقة أن يحصل على المال والسلطان وكلما بلغ منها إلى مكان تطلع إلى المكان الذى يعلوه فالإنسان جشع بطبعه وقل منهم القنوع ومن أدرى بالإنسان من بارئه وهو سبحانه يقول . قتل ما أكفره . . وليس هناك حد لجشع المال فالأرقام لا تنتهى وما دام المال قد أصبح غاية لا وسيلة عند مخلوق ما فويل لهذا المخلوق من نفسه . فهو لا يبحث عن المال ليرد عن نفسه وبنيه غائلة الحاجة وإنما هو يستزيد من المال لذات المال وحينئذ لن يقف به اللهج والجهل عند أمد ينتهى إليه .

وليس هناك حد لجشع السلطة . فكلما بلغ الإنسان الكنود منها قدرا راح يبحث عن سلطة جديدة وهو لا يريد لها لإصلاح شأن من تسلطن عليهم وإنما يبحث عنها لتحقيق ذاته فإن لم يصل بالطريق المشروع - وهو لن يصل به فالطريق المشروع لا يعطى السلطة المطلقة لأحد أبداً - خان وإن خان الأقربين وقتل وإن قتل الشعوب وطفى وتجر وألغى الضمير من حياته فأصبح شراً من الحيوان .

فالحيوان لا يقتل الا حين يجوع يريد أن يسد جوعه . أو حين يخاف يريد أن يأمن . أما السلطان الطاغية فهو يقطع الرؤوس ليجعل منها سلماً إلى سلطانه أو يقطعها إذا كانت تفكر وهو لا يسمح لأحد غيره أن يفكر . أو هو يقطعها لأنه يخشاها حتى وإن كانت خشيته مجرد وهم لا يؤيده

برهان ولا يقوم عليه دليل فالخوف في أغيب أمره لا منطق له . والسلطان الخائف ذئب مسعور .

والعجب العجيب أن الإنسان يصنع هذا جميعه وهو على ثقة لا مجال فيها لشك أنه ميت لا محالة . وهو على ثقة أيضا أنه عندما يموت لن يصحب معه مالا ولا سلطانا . بل هو سيصحب معه - لا شك - مارتكب من آثام وجرائم في سبيل هذا المال وذلك السلطان ، وكلما ازداد ماله زادت آثامه وكلما طغى سلطانه تراجعت جرائمه .

وفي الناحية الأخرى من الحياة لن يكون في حاجة إلى المال بل إن ماله سيكون وبالا عليه فتكوى به جباههم وجنوبهم ويشقون به شقاء جسيما . فلا هو استمتع بالمال في الدنيا واعتصر منه ما يعتصره منه أولئك الذين يرون في المال وسيلة لا غاية . طريقا لا هدفا . ولا هو جعل منه مغازة في آخره كريمة فتصدق به وأحسن تلك المتعة الفريدة التي يحسها المحسن حتى لأحسب أن الله بهذا الإحساس قد وهب له كل المكافأة التي وعده بها ولا هو ظفر بالآخرة بل إنه واجد هناك ماله ينتظره ليكون عليه نارا لا هبة يكتوى بها.....

أما صاحب السلطان فهو ملاق وبالا أشد وعذاباً أنكى فقد خاض بسلطانه وفي سبيل سلطان جديد بحورا من دماء وأهوالا من أرواح وداس بقدميه كرامات ناس وأمنهم وطمأنيتهم واعتدى على معنى كلمة الإنسان الذي كرمه الله وفضله على العالمين .

وقد يقول قائل : وبحك قد ابتعدت عن المنطق واقتضت أن جامع المال الملهوج أو صاحب السلطان المسعور يؤمن بجنة أو نار . أو يفكر في الله الواحد القهار الذي لا يدوم إلا وجهه .

وإني واثق أن مثل هؤلاء لا يفكرون في الله فإن فكروا فبفكر وإلحاد وإنكار وهكذا يكون من الطبيعي رأيهم أنه لا آخرة هناك وأنه لا بعث ولا نشور وأنه لا يخلقنا إلا الطبيعة ولا يبلينا إلا الزمن ولا يمتنا إلا الدهر وأن الإنسان ما هو إلا عدم وإلى عدم .
 حينئذ يصبح أمرهم أكثر إثارة للدهشة والعجب . إذا كان الأمر كذلك - وما هو بذلك - فقيم حرصه على جمع المال وقيم سعاره في ارتقاء السلطان .

الحقيقة أنه لا منطق مع هؤلاء وإنما هو جنون يتسلط عليهم فيختلط الأمر عليهم باختلاط العقل فيهم . ولكن لله في خلقه شئون فبقدر هذا الجنون الذي يتسلط عليهم ويغشى أبصارهم عن نهاية الإنسان نجد عقولهم غاية الذكاء والنشاط عند جمع المال أو السعى إلى السلطان . فإني حينئذ يتكشفون عن ذكاء نادر وحدة بادرة وتوقد ذهن يجعل كثيراً من الناس يعجب بهم . ولو كان هؤلاء المعجبون على ذرة ضئيلة من نفاذ إلى الأغوار وعدم الخداع بالمظاهر لأشفقوا عليهم كل الإشفاق ولرثوا لحالهم غاية الرثاء فإن الفرد منهم إنسان في شكله بعيد كل البعد عن الإنسانية في مخبره وفي داخله وفي تصرفه وفي مشاعره . فهو بلا عاطفة على الإطلاق لا يعرف الحب لأحد حتى ولا لبيه . وقد تسأل كيف وحب البنين غريزة أودعها الله في الآباء ولكن بربك لا تعجل في الحكم فمن قال لك أن الله سوى هؤلاء الجشعين للمال والسلطان على ما سوى سائر الناس أنهم سرطانات بشرية خلقها الله سبحانه ليعرف الناس أنه سبحانه قادر على أن يشكل الناس ألواناً شتى وأصنافاً متفاوتة وأنه قادر أن يرتفع ببعض

منهم إلى مرتبة هي خير من الملائكية ويتزل بقوم آخرين إلى منزلة هي أسفل من الحشرية بلة الحيوانية .

لأنهم مخلوقات شاذة نفوسهم مسلطة على نفوسهم . والويل كل الويل لهم من ذواتهم . والويل كل الويل لهم من ذوى قرباهم ، من كان بهم على معرفة ولا أقول صداقة لأنهم لا يعرفون الصداقة إلا لمنفعة وما هكذا تكون .

لأنهم لا يعرفون نبض القلب بالشفقة أو بالعاطفة . ومن لا يعرف الحب لن يجد أحد يحبه - ومن لا يعرف الشفقة ، يصبح عند الناس كتلة صماء من صخر مشوه لا معنى له ولا فائدة من وجوده . ومن لا عاطفة له ، ذميم عند الناس مقبوح الاسم والسمعة مرفوض من الناس لا يستطيعون أن يعيشوا بغير حب وجمال ونبض عواطف ورقة مشاعر . هؤلاء الجامعون للمال أو للسلطان هم أكثر الناس بغضا عند أقربائهم وكلما توثقت وشائج القرى ازدادت دوافع الكراهية . وهكذا فأبناؤهم هم أشد الناس كرها لهم . أترك الآن رثيت لهم كما أرى .

لا الدنيا أصابوا ولا الآخرة ، ولا هم استمتعوا بمالهم فقد أذهم جمعهم عن المتعة به . ولا بسلطانهم ، فقد أرعبهم ذلك السلطان وسعار البحث عن الجديد منه أن ينعموا بأبهة السلطان ومباهجه وهم في الآخرة شرابهم الغسلين ومهادهم النار وبئس المهاد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ولا حتى جاهلية

كانت الجاهلية ضرباً موبقاً من الحياة . كانت مجتمع الإنسان المنسحق حتى هو بضاعة تباع وتشترى . ثم هو بعد أن يصبح عبداً يصير شيئاً لصاحبه أن يصنع به ما يشاء بما في ذلك القتل . وكانت الجاهلية مجتمع الإنحلال الخلقى حتى لكان سادة العرب يتاجرون في الأعراض تحت الرايات الحمر تخفق بانهباء الشرف وضياع الحياء وغيبة النخوة وسقوط الكرامة

وكانت الجاهلية مجتمع الرجل فله أن يتزوج ما شاء من الناس بغير حدود إلى جانب الجوارى يتسراهن . فإذا كنت سمعت عن امرأة ذات قيمة في الجاهلية فقد استمدت قيمتها من شخصيتها هي لا من حقوقها الاجتماعية وحين جاء زواج الأربعة كان تحديداً وإباحة فقد كان العدد مطلقاً بلا حدود .

وكانت الجاهلية مجتمع السيف والقتل وقوة الحيوان . فلا يعيش في أنحائها إلا صاحب القوة والسلطان المستمد من السلاح فرداً كان هذا القوى أم قبيلة أم جماعة من القبائل . وجاء الإسلام فاندكت هذه الأركان جميعاً .

فلا عبيد ولا سادة . « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » صدق الله العظيم سورة الحجرات الآية ١٣ وهذه الآية وحدها من شأنها أن تكون بركاناً يقضى قضاء ماحقاً على مجتمع السادة والعبيد . أيكون أكرمهم أتقاهم لا أغناهم ولا أقواهم ولا أكثرهم جاهاً وعدداً

وجبروتاً وطغياناً فتلك إذن هي طامة الكبرى وتلك هي نهاية زمان وبداية زمان . فلا عجب إذن أن يفعل الطغاة العرب ما فعلوا .

وجاء الإسلام « ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » .
صدق الله العظيم الإسراء الآية ٣٢ .

إذن فقد ضاع أيضاً ذلك المصدر الضخم من مصادر المال ونكّست الرايات الحمر وأصبحت هبأة عذماً تحرم باعة الأعراض والشرف من تجارتهم الدنسة وتنضب ينابيع المال التي كانت تنسكب عليهم من هاته الخيام المنكرة الذميمة .

وجاء الإسلام فإذا هو يرفع نور السلام على العالمين « لهم دار السلام » النساء ٩٤ . ويقول تعالى في سورة يونس « دعواهم فيها سبحانه اللهم وتحيتهم فيها سلام » ويقول في سورة الحشر « هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام » ويقول في سورة الفرقان « ويلقون فيها تحية وسلاماً » وفي سورة الواقعة « إلا قليلاً سلاماً » فهو دين السلام إذن فلا عدوان ولا اعتزاز بالسيف على غير حق ولا إغارة على الآمنين .

وحين رفع الإسلام السيف رفعه من أجل السلام واستتب به السلام فلم يفتح دولة إلا ما كان يتوقع منها أن تهدد الآمنين من شعوبه ولم يرغم فرداً على الإسلام وإنما هو سلام سلام ومن يرغب في اعتناقه عن اقتناع وإقبال فأهلاً ومن يبتغي البقاء على دينه فأمن هو مطمئن وسلام عليه سلام .

واندثرت الجاهلية وزالت معالمها ولم يبق من آثارها إلا ما يرضاه الإسلام وعلى المدى التاريخي لم يكن هناك عهد كله شرور فلا بد أن تكون

- ١٣ -

هناك إشعاعات من نور في دامن الظلام فما بعجيب أن يبق من الجاهلية النجدة والشجاعة وإغاثة الملهوف وإعانة المحتاج ورعاية الجار وإكرام من غلت بهم السن ومرت الأجيال فأين نحن اليوم من الإسلام ومما بقي من أخلاق سجاحة وإن كانت إلى الجاهلية تنتسب .

الظلام يلف العالم الإسلامي أجمع فلا ضياء من الإسلام ينير سماءه ولا بصيص من شرف يومض بين جنباته القتل والدمار والسرقة والانتهاك والبغى والعدوان والهلل والميد والفرقة والتناكب والشقاق والتناحر والمسلم يقتل مسلماً ، والجميع يقتلون الحق والإشراق والسلام والإيمان .

الدول تتخذ من الدول عبيداً ، وبعد إن كانت العبودية لأفراد أصبحت العبودية للجماعات بأسرها ولأوطان بأكملها وانظر إلى أفغانستان وإلى دول المسلمين صامته راضية وانظر إلى سوريا وما تصنعه بلبنان وإلى لبنان وما تصنعه جماعات منها مسلمة بجماعات منها مسلمة وانظر إلى تلك الداهية الدهياء في العراق وإيران ، وهذا النكبة النكباء المسماه القذافي . أين هذا من الإسلام بل وأين هذا من الجاهلية ويل للعالم أهو يتقدم أم يرجع القهقري إلى أحط عهود الإنسانية وأشدّها وبالا وأتعسها حالا ...

أثيب الإنسان إلى القمر بعلمه وينحدر إلى القرد بخلقّه . كيف يتحطم المنطق ويتهشم بهذه الصورة البشعة . وما كان أغنانا عن القمر إذا كنا لا نستطيع أن نحافظ على الأرض . وإذا نظرنا إلى مجتمعنا هذا المصرى الذى نعيش فيه طالعتنا الدواهي الآخذات .

لقد تحطم في مصر الكثير الكثير مما كانت تعتز به مصر والمسلم ينسى إسلامه ويسرق ويرتشى ويثير الفتنة ولا يرضى الله ويعبد المال وكأنه سيصحبه معه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . أو المسلم يغالى في دينه ويبالغ مبالغة مفتعلة مصطنعة ناسياً قوله تعالى « لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » النساء ١٧١ وقوله مرة أخرى في الآية ٧٧ من سورة المائدة « قل يأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق » يريدون أن يتخذوا الدين وسيلة إلى سلطان الدنيا . بشى مايبيتون . والله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . وهو سبحانه يدري أن بعضهم بل بعض زعمائهم منغمسون في الغى إلى الأذقان لا يتورعون عن الموبقات ما ثقل منها وما هو أقرب ما يكون إلى الكفر يتظاهرون بالورع وهم فيما يظنونهم خفاء يرتكبون الكبائر لا يعفون عن أغفلها شأننا وأحطلها قدرا .

وأين الجاهلية بما أجاز الإسلام من بعض أخلاقها أين النجدة والشجاعة وإغاثة الملهوف وإعانة المحتاج ورعاية الجار وإكرام الكبار . وأين لغة القرآن وأين لغة العرب .

أما النجدة فأغلب الظن أن كثيراً من القراء لن يعرف معناها وهو يقرأها وأين الشجاعة وقد أصبح النفاق هو سمة العصر فلا تسمع كلمة حق إلا من النادرين القلة الذين لا يزالون يعتبرون أن الكلمة عرض وشرف . وأين إغاثة الملهوف وأنت تجد الموظف يأبى أن يؤدي وظيفته الطبيعية إلا إذا أصاب مالا يجوز له من مال ويسميه إكرامية وهو عند الحق رشوة . وهل لمرتش أن يغيث ملهوفاً كيف ؟ شرف وخسة لا يجتمعان . كما لا تجتمع الأمانة مع السرقة أبداً .

وأصبحت رعاية الجار عدواناً على أمن بيته بالأصوات الصارخة من أدوات الإعلام أو من أبواق السيارات هذا إذا لم يتمثل العدوان في تشابك بالأيدي أو الألسنة .

وما دمنا لا نرعى شأن الجار اللصيق فما بعجيب أن نسكت عما يحدث لإخواننا في الإسلام في بلغاريا والإسلام قرى ونسب . فما بالناس لم نرد دولة من دول الإسلام حركت ساكناً لنصرة إخوتها في الإسلام ولو بقطع العلاقات مع بلغاريا .

لقد كان العرب سباقين إلى قطع العلاقات مع زعيمهم مصر لأنها استردت أرضها لأنها وقعت معاهدة كامب ديفيد التي يلهثون اليوم جميعاً إلى معاهدة قريبة منها فتقطع أنفاسهم وتنغلق دونهم الطرائق وتسد أمامهم المسالك .

وحين يقعد بهم العجز لا يجدون متنفساً لغيظهم إلا سب مصر وكامب ديفيد فعل الثعلب الذي لم يصل إلى العنب فراح يصب على العناقيد جام غضبته .

أيقطعون العلاقات مع مصر لأنها انتصرت لهم ورفعت ذكركم في العالمين وأسعار بترولهم في دنيا المال وجعلت أنوار الإسلام تتلألأ في أنحاء العالم أجمع . وييقنون على صلاتهم وعلاقتهم مع روسيا وهي تلك المسلمين في أفغانستان . ومع بلغاريا وهي تنكل بالمسلمين المسلمين في ربوعها .

أمثل هؤلاء ننشد عندهم رعاية الجار . أليست مصر جاراً لهم . وأما لثقافتهم ومصدراً لعلمهم وفهم ومجدهم في أنحاء العالم المتمدنين كله .

- ١٦ -

مصر الأزهر مصر المآذن يقطع المسلمون علاقتهم بها ويبقون على علاقاتهم
مع الذين يبيدون المسلمين في أفغانستان وينكلون بالمسلمين في بلغاريا .
لا ورب الكعبة .. ولا والحرمين .. ولا إسلام في هذا ولا حتى جاهلية
الأخاء والنجدة .

.. واليوم نحن في أعقاب عيد إسلامي نصطنع الفرحة على وجوهنا
ونتبادل المعايدة أئماً وأفراداً وأصبح مع المنتبى :
عيد بأية حال عدت يا عيد

بما مضى أم لأمر فيك تجديد
فإن تكن عدت بقديمك فلا فرحة لنا فيك وإن كنت عدت لأمر
تجديد فلنقل البيت القديم .
منى أن تكن حق تكن أعذب المنى
وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا

حيرة !

إلى الرحاب القدسي من ساحة الرحمن يتوجه المكروب والملهوف وذو الحاجة فيجد نفسه المظلمة الخراب قد أشرقت بالنور الإلهي . أينع نبتها واخضل زرعها وأطل الندى جديها واستقبل الحياة بعد إدبار واتسعت الآمال بعد اليأس .

فيا هؤلاء المساكين الذين لا إله لهم إلى من يتوجهون وإلى أى مشرق أمل ينظرون .

ويل لهم لقد اختاروا لأنفسهم اليأس الذى لا أمل له والكرب الذى لا فرجه فيه والسواد الذى لا يستطيع شعاع أن يكشفه .

فلا عجب إن كانت نفوسهم كلها حقداً خالصاً ولا غرو إن كانت قلوبهم كلها كراهية داكنة معتمة .

هم لا يستطيعون أن يقدموا حباً لأنهم لا يعرفون فى قلوبهم إلا البغضاء والتحاقد والسخيمة والدمار .

وهم لا يريدون فى الحياة سلاماً لأن نفوسهم موات ودماء وقهر وطغيان وكيف لهم أن يعرفوا غير هذا وهم لا يؤمنون بالله السلام الرحمن الرحيم الغفور .

الذين لا يعرفون الله يريدونها حرباً بين أبناء الوطن الواحد وحرباً بين أبناء الجنس البشرى أجمع فمع الحروب يسود الخراب وفى الأرض الخراب تنبت أزهارهم ويخضل نبتهم وعلى الخراب يقيمون عروشهم أركانها قهر الإنسان وقتل الإيمان وكراهية الحب ونزع الأمان وإشاعة البهتان وإفشاء الذعر ونشر الفوضى ومحاربة القانون ومنع الخير ومباركة العدوان .

فلم يكن عجباً إذن أن يتحد الناصريون والشيوعيون وإن كان كثير من الناس قد عجبوا وأنا منهم في الوهلة الأولى التي شهدنا فيها تحالفهم كان عجبنا أننا شهدنا الشيوعيين يلقون ألواناً من العذاب وصنوفاً من تدمير عناصر الرجولة والإنسانية فيهم على يد العهد الناصري .

وكنا نحسب أن التنافر بينهم سيظل إلى أبد الآبدين ولكننا فجأة وجدناهم هم السادة الحكام يتسنون مناصب الصحافة والإعلام والفنون ويملاؤنها من أشياءهم ومناصريهم ويملاؤها أيضاً ممن لا يؤمن بمذهبهم ولكنه يريد أن ينشر أن كان كاتباً ويريد أن يمثل أو يخرج أن كان ناشئاً ويريد أن يعيش إن لم يكن لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

وما زالت آثار أغراسهم باقية حتى اليوم في شتى الأنحاء تحارب غير الشيوعي أو غير الناصري وتبارك كل ما هو كفر وإلحاد وتمجيد للطغيان وتعظيم للظلم والقهر والعدوان .

وهكذا لا نسمع شيئاً عن حرب رمضان إلا أن يكون هجوماً ورفضاً مما اضطر رئيس تحرير الأهرام أن يصبح بهم في مقاله الأخير أفيقوا وأعدلوا فإن الأمر ليس لهوا ولا لعباً .

وأنا أكتب هذا الكلام اليوم بعد أن فكرت حتى ضاقت بي مسالك التفكير .

أما الشيوعية فنظرية واضحة المعالم معروفة الأسس طبقت في بلاد كثيرة لأن لها كياناً يستطيع من يريد التعرف عليها أن يجده .
وصحيح أنها فشلت عند كل تطبيق إلا أن هذا لا يمنع أنها نظرية لها معالمها المميزة .

وصحيح أن أى دولة لا يمكن أن طبقها إلا إذا ألغت تماماً فكرة الأديان إلا أنها تظل مع ذلك فكرة ذات سمات ظاهرة وصحيح أن الصين أضخم دولة في التاريخ وجدت في تطبيقها الخراب والدمار مع أن الصين كان يمكن أن تقول حسب الفرد منا رغبة العيش وليذهب كل ما عداه إلى الجحيم وليس توفير ألف مليون رغبة ثلاث مرات أو مرتين في اليوم بالشئ اليسير ولكن الصين وجدت أن النظرية ألغت الإنسانية في الشعب الصينى ولم تستطع مع ذلك أن توفر رغبة العيش ذلك لأن الصين تعتمد على مواردها وحدها وليست مثل الاتحاد السوفيتى الذى يعتمد على موارد كل الدول التى أرغمها أن تكون تابعة له .

صحيح هذا ولكن تظل النظرية الشيوعية مع ذلك نظرية يستطيع من يدرسها أن يجد لها مقدمات ونتائج ومعالم وملامح .

ولكن الذى أريد أن أعرفه والذى استغل على ماهى النظرية

الناصرية ؟

ما هى المبادئ التى يمكن أن يقوم عليها الحزب الناصرى ؟
المبادئ التى يمكن أن أتصور أن تقال غير قابلة للإعلان وإلا فتصور معى ما طاف بخاطرى .

المبدأ الأول قتل حرية الإنسان المصرى فى العمل أو القول أو التفكير بحيث يتم اعتقال كل من يظن العاملون فى المخابرات من رجال ونساء أنه أتى شيئاً من هذه المنوعات بأى صورة من الصور والعقوبة تكون الاعتداء على المال أو العرض أو الأرواح أو كل هذه العقوبات .
المبدأ الثانى أموال الدولة كلها ينبغي أن تكون فى خدمة الحزب ، يتصرف فيها كيف يشاء وينفقها الحزب فى الأغراض التى يرى الحزب أنها

- ٢٠ -

تحقق الشهرة والتهافت للحزب ولما كان الحزب هو مصر جميعا فكل إنجاز يحققه الحزب لنفسه إنما يحققه لمصر جميعا .
ولو مضيت في هذا السبيل ما توقف القلم قبل أن يكتب كتابا كاملة لأعدد لها .

وإذا كان الحزب الناصري سيتبنى النظرية الشيوعية فما الحاجة إليه مادام منضما بكل أعضائه إلى الشيوعية وأحزابها الظاهرة والخفية .
وإذا كان سيتبنى المبادئ التي نادى بها الثورة في يولية عام ٥٢ أفلا يعتقد أن هذه المبادئ قد طبقت فعلا بكل أمانة في غير العهد الناصري وعلى كل حال فما دامت طبقت والدستور يضمن الحفاظ عليها ففيم إذن يقوم حزب ليضع مبادئ موضوعة فعلا ويضمن بقاءها دستور وحزب وحكومة ومجلسان تشريعيان .

حيرة ولكن الله سبحانه الذى يهدى السبيل وينير الظلام ويزيل الحجب قادر أن يزيلها وإنه على كل شىء قدير .

بهلوان فى لوزان

أجلس فى لوزان على مقهى صغير فى ميدان شهير هنا يسمى ميدان سان فرنسوا ويمتاز هذا المكان بالهدوء وكثرة المارة وعجيب أن يجتمع فى مكان واحد الحركة والهدوء فى وقت معاً أحببت سويسرا كلها من هذا الميدان فالتناس دائماً فى سعادة وفى إقبال على الحياة دون أن تعدو هئاءتهم على هدوء الآخرين فالسعادة عندهم ابتسامة تنبئ عن قلب ليس فيه ما ينغص حياته . والإقبال على الحياة عندهم توسعة للآخرين أن يقبلوا على حياتهم .

وفى اليوم التالى لوصولى إلى لوزان ذهبت إلى المقهى فى الصباح فوجدتها على عهدى بها . ولا أدرى ما الذى جعلنى أفكر أن أذهب إليها فى بعد الظهيرة أيضاً . وقليل ما أفعل . فوجدت الميدان مزدحماً متحلقاً حول بهلوان يعرض ألعابه عليهم وهم على مشاهدته مقبلون . وفكرت قليلاً . وعجبت كيف أهرب من البهلونات فى القاهرة أجدهم سبقونى إلى لوزان . ولكننى عدت إلى نفسى وفكرت . أن هناك فرقا . فبهلونات القاهرة يعرضون ألعابهم وقد تزىوا بزي المحترمين من القوم وأسفروا للناس عن وجوههم التى خلقهم الله بها واتخذوا أدوات البهلوانية من العمل والقلم والورق ، وادعوا الحق وهم فى أقصى الباطل وتظاهروا بالأمانة وهم غرقى فى الخداع والمخادعة .

أما بهلوان لوزان فهو بهلوان يعلن على الملأ أنه بهلوان ولا خفاء وبهلوان لوزان ينشد الحصول على صباية من مال ويقولها فى صراحة ووضوح

ويتزيا لغايته في ملابس البهلوان ويصنع وجهه بصبغة المهرج . فهو بما يندم سعيد والناس بما يرون منه سعداء بغير حقيقته . وهو يقف على أرجل طويلة ولكنه لا يحسب بهذا أنه أرفع من الناس قدرا . أو أنه قادر بذلك على أن يخدعهم عن حقيقة قامته . وبهلوانات القاهرة قصار القامة ضئيل حجمهم بكل المقاييس ولكنهم في جرأة المنافقين يحاولون أن يموهوا على الناس - ويجعلوهم يظنون بهم ارتفاع الهامة وشموخ الرأس . ولو كانوا على قدر ولوضئيل من الذكاء لقدروا أن أول مبادئ الذكاء أن تقدر ذكاء الآخرين وأن الشعوب هي أذكى العالم نقرأ فمن يحاول أن يخدعهم سرعان ما يكشفوا أمره ويتبينوا حقيقته .

من هذه البهلوانات من عملوا في خدمة الطغيان فكانوا الآلة الصماء تمسك بهم يد حديدية فراسة باطشة راحت تلعبهم وتلاعب بهم . ومنهم من كانوا لصاحب السلطان أو قل لصاحب الطغيان جواسيس ينقلون إليه أنباء الآمنين من الناس فإن لم يخذوها لفقوها ثم جعلوه يتخذها ذريعة لكل ما تقشعر منه الإنسانية وتأنف أن يكون بين أفرادها من يفكر فيه بله يصنعه .

ومنهم من أمر بهم أن يكونوا قواد جيوش واساطين حرب فإذا بطولاتهم تسفر عن ٦٧ وحسبهم هي خزيا .

جميع هؤلاء اليوم يريدون أن ينتفضوا عن وطنيين مرنوا على مكاذبة الحياة والغدر بعقول المصريين فهم يسعون جهدهم أن يعودوا إلى الحياة العامة وليس يبالون تاريخهم الأسود بل هم يدعون اليوم أنهم كانوا يرفضون ما كان يحدث ولا أدري ماذا هم قائلون عما اقترفوه فعلا وهم فضاة أو رجال دولة . ولست أدري أيضا ماذا هم قائلون عما أغتالوه من

أموال لأنفسهم ومازالوا ينعمون بها حتى اليوم إلى جانب ما اغتالوه من أرواح بشر مصريين وما اغتالوه من كرامة مصر نفسها بل أن منهم من يصور له وهمه أن إنقاذ اقتصاد مصر معلق بعقريته فهو يعد المشاريع ليزيح عن مصر الهول الآخذ الذي كان هو نفسه من الدعامات الكبرى في إنزالها بمصر.

بهلوانات كثيرة ذكرنى بها ذلك البهلوان ولكن بهلوان لوزان لم يس إلى بلاده ولم يشارك في انتهاب أموالها والبهلونات الآخرون شقوا الأفق ليغيوا فيه شمس مصر يريدون اليوم أن يعرفوا الأيدى التى تحاول أن تشد شمس مصر من مغربها لتعود إلى الإشراف على ربوعها ولتزدان مصر بالحرية التى خنقوها وتها بالحب الذى جعلوه حقداً وبغضاً وكراهية . وبالسلاسل بعد حرب منتصره حققناها بعد أن أشعلواهم الحرب على أبناء مصر حين فشلوا في حروبهم مع أعداء مصر .

الغود أحمد ..

أنا أعد نفسى للعودة من بلاد الإنسان فيها أعلى قيمة فى الوجود .. وأنا أكتب هذا وأنا فى سويسرا بلاد الجبال والبحيرات .. كيف استطاعوا أن يخضعوا الجبال وهى الشاهقة البالغة أعنة السماء للإنسان فهى متعته وهى رياضته ونزهته والبحيرة يركبها ذلولاً تشرق للإنسان بأكمل ما فيها من وجوه أنت عليها بطل .. كيف أصبحت الجبال الصخرية الصلدة أرضاً خصيبة معطاء .. وكيف غدا الصخر الصلب الشديد بيوتاً هى زينة ومتعة فى عين الرائيين .. وهناء ورغداً لعيش الساكنين .

. وتمشى فى الطرقات فتجد المصاعد الكهربائية توفر عليك عناء الصعود أو الهبوط وترى الطريق أمامك يضحك لك يستقبلك إمش بإذن الله سلمي معافى فلا خوف عليك من عثرة ولا ضير على قدميك من مفاجأة أنت آمن فى خطاك هادئ سيرك فى جنبات المسالك .

وكنت قد انتويت أن أعود إلى مصر فى آخر هذا الشهر . ولكن فجأة عافت نفسى الحياة فى أكناف لوزان الفيحاء وفى إشراقة الدنيا بها وملت نفسى السعادة فى صباح ومساء . الصباح إشراق لا تلقى فيه إلا الوجوه الوضيئة بالأمن الراضية عن العيش والمساء هدوء وسلام .

وتأقت نفسى إلى مصر . بكل ما فيها من وعشاء الطريق وغابات الأشجان ومتاعب النفس ونواقص الخدمات .

سئمت البلاد التى تعتبر الإنسان أغلى عناصر الوجود وسيد هذه الحياة .. وألح بى الشوق إلى مصر .. بكل مصر .. بطرقاتها المخلعة الأرصفة المحفورة المسار بمائها وما فيها مما ندره ولا يدره إلا عالم الغيب والشهادة .. بشكاوى الناس من قلة الايواء وصعوبة النقل ووعورة اليوم . وانكماش الغد وضالة الرزق وغلاء المطلب .

وجدت الحنين إلى مصر هذه يقتلنى إقتلاعا من مقامى بسويسرا ويدفعنى دفعات جائحة إلى بلادى فالهناء فى سويسرا ليس هنائى والديار ليست ديارى . والربوع ليست ربوعى والنسمة تهفو إلى من غزالة بلدتى بخوار الزقازيق أحب إلى من كل الجمال فى سويسرا ومن كل هذا الهناء فى أنحائها ومن كل الطمأنينة فى جنباتها فكل هذا مبذول لأصحابه وليس لى وإن شملنى منه نصيب وأنا بينهم فكما يشمل المضيف ضيفه ببعض الرعاية . والضيف مهما ينل من العناية يظل ضيفا . وشعور الإنسان بأنه

ليس في بيته يجعله دائما حذرا. يقب يوم عودته إلى كسرة بيته وإن كان عشا بلا فخامة .. وإن كان سقيفة بلا جدران .

وجئت وحمدت العودة وأحسست وأنا هنا أنني في مكاني الذي خلقني الله له وخلقه لي هنا أستاف عير أبائي وأجدادي من تراب مصر وأشتم أجمل هواء عرفته في حياتي . هواء مصر فإن خينا هنا وما مضى من أيامي هنا وما هو في مطوى الغيب قابل هنا مثوى الذين مضوا من أعز الناس علينا ومستقبل نفوسنا ومن هم أعلى من نفوسنا من أبنائنا . ونحن هنا غرس في أرضه ونبات في مكانه . أصل نحن هنا وفروع وماضي نحن هنا حاضر ومستقبل نحن هنا .. نحب هنا بقلوبنا ومشاعرنا ونبضات عروقنا وليس مع هؤلاء منطق إلا الحب .

ودخلت إلى مكتبي في الأهرام أعز مكان على نفسي بعد قريتي وبيتي وقرأت بريدي ورحت أقلب الصحف التي لم تكن تصل إلى غربتي . ووجدت مجلة الأهالي في أسبوعها الماضي . كلما قرأتها تملكتني الحيرة .. ماذا يقول هؤلاء الناس .. وما لهم ينصبون هكذا بعدوانهم الوقح على الحقيقة يزيدون أن يدمغوها بالبهتان وما لهم يعترضون الطريق القويم بأسلحة الزور والكذب والتمويه .

في صراعهم مع عبد الرحمن الشرقاوي وليس الشرقاوي بحاجة إلى أحد أن يقف إلى جانبه فهو وخذله قادر وأكثر من قادر أن يمحى حجتهم بقلمه الشامخ الجريئ .

والحق في جانبه واضح .. وهو ابن مصر لم يتلكأ على أبواب المخايل من حكام ليبيا ولم يصانع أثرياء البترول بقلمه أو كلمه .

ولم يقل عن أحد أنه نبي جاء في غير مواعده لأنه مسلم ويعلم علم يقين أن سيدنا محمداً عليه صلاة الله وسلامه هو خاتم الأنبياء . وهو قد قرأ تاريخ الأنبياء وعلم أنهم قم الإنسانية وأى قة أعلى من اختيار رب الناس ملك الناس إله الناس لحمل الرسالة . وهو يعلم كما يعلم كل مؤمن أنه لم يحدث أن ظهر نبي مجنون يخرب الأرض حواله ويحرق الدنيا جميعا في جنون الزعامة وبمال الشعب الذي فرض عليه حاكما ..
مكن الأهالي تقول أنه نبي جاء في غيره مواعده .

أهم مؤمنون بالأنبياء الذين جاءوا في مواعدهم حتى يؤمنوا بالنبي الذي جاء في غير مواعده وجعل معجزته محاولته السافلة الحقيرة أن يغير في القرآن الكريم .

ولم يقل الشرقاوى أن القذا في آخر الصقور ولست أدري من هؤلاء الصقور السابقون حتى أدري آخر الصقور إلا أن يكونوا يقصدون بقولهم هذا أنه الطواغيت الذين يختطفون ما ليس لهم بحق والذين ينهشون لحوم الموتى والذين يأكلون الجيف إن كان هؤلاء هم الصقور الذين يقصدون فاللهم نعم أنه صقر .. واللهم يا ذا المن سبحانهك اجعله آخر الصقور فما أبغض الناس شيئا قدر بغضهم للطواغيت العتاه الظالمين السافكين دم شعوبهم وأهليهم .

أنا إذن لن أقف في جانب الشرقاوى فهو ليس في حاجة إلى أحد أن يقف إلى جانبه بل ربما عارضته أيضا فيما أطلقه من إسم اليسار الوطنى على جماعة بعينها فأنا لا أعرف في مصر عدداً من الناس يمكن أن يكون جماعة إسمها اليسار الوطنى وإنما هم أفراد قلة مثل الشرقاوى - ومحمود توفيق وفنحى غانم وربما تكون هناك بعض أسماء أخرى لا تسعفى بها الذاكرة ولكنهم على أية حال لا يكونون جماعة يمكن أن تحمل إسمها .

وإنما أنا أريد أن أسأل الاهلى وأصحابها ما هجومهم هذا اللثيم الجانح على أنور السادات عملاق الحرب وعملاق السلام .. أليس هو من أنشأ حزبهم وأنشأ مجلتهم واختار من بينهم إثنين جعل منهما وزيرين عاملين .. أهذا ذنبه عندهم أم هذا جزاؤه أم على قلوب اقفلها ؟ وما قولهم أن الأهرام جريدة حكومية .. ألا يعرفون أن الأهرام مؤسسة لها من المال ما يستطيع أن يخرج عشر جرائد في حجم الأهرام بما كسبته من ثقة عند الناس في مشارق الأرض ومغاربها . فالحكومة إذن لا تدعم الأهرام ولكن فليقولوا لى هم - ما داموا ينكرون أنهم يتقاضون الأموال من الدول الشيوعية ودول الميمين ودول البترول -- كيف تصدرون أتم ومن أى الموارد تنفقون على مجلاتكم أن اشتراكات أعضائكم كلها فى عام بأكمله إذا كانوا يسددوها لا تكفى لإصدار عدد واحد من مجلة واحدة من مجلاتكم .

إذن فأنتم تصدرون بدعم من الحكومة .. منه الدعم الظاهر الذى قرره لكم السادات ومنه الدعم الباطن المتمثل فى إعلانات الوزارات والقطاع العام فإن القطاع الخاص لا يمكن أن يعلن عندكم .. وكيف يعلن ويقدم مالا لإعلان فى جريدة لا يقرأها إلا المئات مشتتين فى أنحاء مصر .. أتم إذن الجريدة الحكومية أما الأهرام فإنه الأهرام وأنتم تعرفون وإن رغمت أنوفكم ما معنى كلمة جريدة الأهرام فى الآذان وفى النفوس وفى أنحاء العالم أجمع .

قرأت الأهلى عند عودتى لمصر وحزنت أن بين ربوع مصر أمثال هؤلاء ولكن مالى لا أقول مع المتنبي .

فإن يكن الفعل الذى ساء واحدا

فأفعالك اللالى سررن ألوف

لا يغلب ظلم حقا

قال الشاعر :

تلوا باطلا وجلوا صارما

وقالوا صدقنا فقلنا نعم

وقد شاء الله لمصر أن تبيع فيها الأمور ويجلس على عرشها ملك كان في زمانه شر الملوك جميعا . طيش أحق . وخفة جاهل وغيبة ضمير . وسوء مظهر وخبر .

وكانت الثورة يومذاك أملا وتحقق الأمل . وأشرقت نفوس الشعوب مرتقبة الفجر . ولكن صدق على مصر بيت الشعر :

على الذم بتنا مجمعين وحالنا

من الرعب حال المجمعين على الحمد

ولم يكن الشعب يستطيع أن يصنع شيئا وسيف الظلم مشهر على الرؤوس فلم يكن للشعب بد من أن يقول نعم واللهم بحياة الشعوب لا بد أن ينتهى بكارثة نحل على الجميع . الباطشين ومن بطش بهم في وقت معا . وكانت كارثة ٦٧ فإذا هى تتسع ويتأجج سعيها فيشمل العالم العربى أجمع ولا تكتفى بمصر وحدها وإنما هى تمنع فى بلواها فتحطم مع كرامتنا تاريخنا وأجدادنا وآمالنا .

ولما كانت سنة الكون أن تتأدى كل موجة فيه إلى انحسار فقد أذن الله لمصر أن يتولى أمورها رجل راشد صادق الوطنية عميق الشعور بمصريته

- ٢٩ -

ووقف ينظر الخراب وأدرك أنه بين إثنين ولا ثالث لهما . إما أن تنتصر مصر في حرب ترد إليها وإلى العرب الكرامة الضائعة والشرف المزال والمحطم من أبقادها . وإما أن نموت جميعاً في ساحة القتال . وكثيراً ما يكون الموت خيراً من الحياة .

وكانت حرب ٧٣ . وما كانت حرب ٧٣ لتصل إلى الانتصار الذى حققته إذا لم يكن السادات قد أدرك قبل أن يعد لها أن الشعب يحتاج أن يشعر بانتمائه إلى مصر وأنه لن يشعر بهذا الانتماء وهذه الطغمة من الذئاب الدموية تتناش لحمه وكرامته وأمنه وحياته فكانت ثورة مايو هى التمهيد الطبيعى للحرب .

وبعد أن هزمت مصر في ٦٧ وليس بيننا وبين العدو قناة السويس ولا خط بارليف انتصر الجيش المصرى نفسه وعبر بحور النار وحطم أسطورة بارليف ورفع العلم المصرى على جبال كنا على يقين أن القدم المصرية لن تطأها .

وشفع السادات هذا الانتصار الحزى الذى أذهل العالم بانتصار سياسى لم يسبق له مثيل فى التاريخ وحقق لمصر السلام الذى لولاه لكان حالنا اليوم مثل الشعب اللبنانى الذى أمست حياة أبنائه نهباً للصديق والعدو وللخليف والخضم حتى لا يدري بين الدين يعيشون فى ساحته من محب ومن كاره . ومن يؤازره ومن يهاجم وحسبه الله ونعم الوكيل . ولما كان العظماء يقدمون دماءهم ثمناً لشجاعتهم فقد شاء الله سبحانه فى علياء سمائه أن تكون نهاية السادات فى يوم مجده وفخاره وأن يراق دمه فداء لشجاعته . وحكم مصر حسنى مبارك وقد أدرك أن الحكم اليوم للحرية الحققة الصادقة وليست الحرية المكذوبة المشوهة . فصر اليوم عزيزة

- ٣٠ -

الجانب مطمئنة إلى سلام موثق لاشك فيه ومصر تحتاج أن تستعيد الثقة المالية التي محارها حكم الطغاة والثقة لا تعود إلى دولة إذا لم تكن الحرية هي أساس الحكم فيها وقاعدة الحياة بين ربوعها .

وأتاح حسنى مبارك للحرية في مصر أن تكون هي الحياة فأصبح نجار الكلام أدعياء البطولة يستخدمون الحرية في الاعتداء على أقدار الناس . ولكن تلك هي الحرية . ولم يكن حسنى مبارك يجهل أن الحرية تفتح ساحتها للشرفاء ولغير الشرفاء . وهكذا اتضح الرئيس حسنى مبارك عز زعيم يعتبر قمة في القوة وشدة البأس .

وكانت قوته متمثلة في قبوله لكل ما يقال لا يحاول أن يستعمل سلطاته في قمع قائل أو في إسكات مبطل أو إسكات مبطل كذوب . وإنما جعل الأمر للرأى وحده ودون أن يتدخل السلطان في هذا الرأى فالقوة الحققة إنما هي أن يملك الحاكم نفسه لا يفلت من يده زمام الأمر في غضبه أو سحقه فالحاكم أقوى ما يكون الحاكم هو الواثق بأن ما يفعله هو الحق وما يتغياه هو الخير .

فإذا انتقد ناقد نظر فيما يقول فإن كان حقاً انتفع به وإن كان باطلاً أعرض عنه دون أن يمس المبطل بأذى وحسبه رأى الناس فيما يقول ولم كانت الحرية في مصر اليوم كإشراق الصباح الذى لا خلاف عليه . فقد أدرك أولئك الذين امتصوا دماء الشعب وأصبح ثراؤهم يتناول أشد عتاة الرأسمالية أن لا سبيل لهم أن يعودوا إلى الحكم إلا أن يتنادوا ويصطرخوا ضاعت الحرية فأدركها ياشعب مصر ، وضاعت الثورة فهبوا يابناء مصر .

- ٣١ -

ولو أنهم ينشدون الحق وحده لكان تناديهم ضاعت حريتنا في قتلك
يا شعب مصر فأعد رقابك إلى أفواهنا .
وضاعت مصادر الثروة من أيدينا فلا نملك اليوم أن نزيدها فأعطنا
ثروتك يا شعب مصر .

وهم يدركون أن الذى بقى من الثورة هو خير ما جاءت به من هدم
للملكية وإعلاء لقيمهم لم يحافظوا عليها وهم من حاولوا أن يطمسوها
ولكنها بقيت لأنها أصيلة .

وهم يعلمون أن الحرية التى تعيشها مصر اليوم هى التى سمحت لهم أن
يصدر أحدهم بحزب ملحد جريدة أسبوعية ليس فيها إلا الهجوم السافر
على رئيس الدولة وكل شريف فى مصر وهى التى سمحت لبعض منهم أن
يذهب إلى البلاد العربية ليستجدى من حكامها المال والرضا منتهزاً فرصة
الخلاف الطارئ بين مصر وبين تلك الدول . وسمحت لبعض آخرين أن
يتآمر علناً على الحكم فى مصر .

وهم يعلمون علم يقين أنهم حين كانوا فى طفولتهم وجبروتهم كانوا
يقتلون من يضع يده لمجرد السلام فى يد واحد من أعدائهم . والأمثلة
معروفة ولم يعد اليوم شىء خافياً . ولكن على قلوب منهم إقفالها وفى
الوجوه منهم صفاقة لا تكون إلا للطواغيت . وإنهم لهم الطواغيت .

قصة لم أصنعها

ألتقى به في عرض البحر الأبيض المتوسط مرات قليلة كل عام فهو اعيد نزوله إلى البحر لا تتفق مع مواعيدى إلا في أيام قلائل . ونتجاذب أطراف الحديث ونحن طافيان على سطح الماء بخرقة هينة من الذراعين والساقين ونترك للأمواج البحر أن توجه مكاننا حيثما يطيب لها أن تتجه .

وينجري الحديث . بيننا هادئاً ليناً هنياً كأمواج بحيرة أو كأمواج الخليج الهادى الذى نلتقى فيه . لا نقاش بيننا وإنما قصص صنعتها بناء الحياة على مدار العام أو صنعناها نحن في الحياة والعام أيام طوال ولقاؤنا ساعات قصار تتزاحم الأنباء فيه بغير تحاشد ولا مواثبة وإنما القصة نفضى إلى القصة والنبأ يسلم إلى النبأ وقد نفتتح الحديث بكلمة قرأناها لصحفى في الصباح . أو لكاتب نشرها منذ قريب وقد تذكرنا الكلمة بقصة حدثت في شهر العام ونروىها ومنذ أيام قلائل طلعت علينا صحيفة بكلمة لصحفى دأب على أن يدافع عن فترة بعينها وعن أسرة بذاتها والبتزم بهذا الدفاع يسارع إليه سواء دعا إلى ذلك داع أو لم يدع وإنما هى مهمة وضعها هو على كتفيه . ولا أبظن أنه اختار هذه المهمة طوعية واختياراً فقد ارتبط اسمه هو وما نال من وظائف في دنيا الصحافة المصرية وغير المصرية بتلك الفترة وبناسها وبمن ينتسب إليها . فالدفاع دفاع عن نفسه وعن المديح الذى كان يكيله بغير حساب لهذا الزمن ولأعلامه واقرامه على السواء .

وأخونا الصحفى يحسب أنه بما يدافع اليوم إنما يدفع عن نفسه تهمة النفاق . ويعلم الله أنه أوقع نفسه في منطقة من الرمال المتحركة الخائنة التى

تبتلع الإنسان كلما حاول أن يتخلص منها ويزداد الابتلاع كلما ازدادت محاولة التخلص عنفاً وإصراراً .

وقال صديق البحر وهو يربت الأمواج بيديه .

هل قرأت ؟

قلت : نعم قرأت

قال : إذن أستطيع أن أروى لك ما حدث لى فى هذا المضمار .

قلت : وهل لنا عمل إلا الرواية منك والإستماع منى أو الرواية منى

والإستماع منك .

قال : عشت عمري اعجب بالعمال وهم يبنون

قلت : هذا طبعى فأسرتك كلها عملها البناء أباً عن جد

قال : وهكذا أصبحت مهندساً . وأنا مساهم فى شركة مقاولات .

قلت : وهذا أيضا طبعى .

قال : عرفنا فى الشركة التى أساهم فيها أن هناك عملية لإنشائية طرحتها

شركة أمريكية تكلفتها تتراوح بين أربعة ملايين وخمسة ملايين من

الجنهيات وتقدمنا لنقوم بالعملية وتقدمت معنا شركات أخرى منها شركات

أفراد ومنها شركات من جملة أفراد . وبعد الفحص جاءت شركتى الأولى

بين الشركات الأخرى ولكننى لم أسارع بقبول العملية فقد كان من بين

الشروط واحد يقضى بأن أقدم للشركة خطاب ضمان بعشرة فى المائة من

قيمة العملية . وخطاباً آخر بخمسة فى المائة من قيمة العملية أيضا .

ورأيت أن هذا سيكلفنا مبلغاً ضخماً من المال لا أحتمله . فذهبت إلى

الشركة الأمريكية ورجوتها أن تعفينا من بعض هذه المبالغ الضخمة ولكن

الشركة رفضت قائلة أن هذا من قانون الشركة ولا يمكن أن يغيروا قانون الشركة .

وبناء عليه رفضوا العطاء الذى تقدمت به وقبلوا العطاء التالى :
أتعرف من صاحب العطاء التالى ؟
قلت : ومن أين لى أن أعرف وأنا لم أعرف كلمة المقولة إلا مما درسته بكلية الحقوق .

قال : إنه من فلان ..

وذكر إسماء ، لا أستطيع أن أذكره فالحديث بيننا فى البحر ولا دليل معه يقدمه لى ولا دليل عندى أقدمه للقارىء ، وهذا كلام إذا لم نشفع فيه الأسماء بالمستندات نكن ظالمين لأنفسنا ولذلك اخترت كلمة « قصة » عنواناً لهذا الكلام لأن القصة قد تصدق وقد تكون تأليفاً وخيالاً .
مع أننى واثق كل الثقة من محدثى الذى أعرفه منذ قرابة عشر سنوات لم أجرب عليه إلا الصدق والأمانة والشرف ، ثم أنا رجل خالطت الحياة وعركتني وعرفت من أخلاق الناس ما ينبغي أن يعرف من عاش حياتي ومن صناعته فى الحياة كتابة الرواية والمقالات والقصص وهذه صناعة إن لم تكن فيها واسع الخبرة بالناس وبالحياة فلا أمل لك على الإطلاق أن تقدم إلى الناس شيئاً يستحق الذكر ، فالكاتب يقدم الناس إلى الناس وإذا هم أحبوا أنك لا تعرفهم حق المعرفة انصرفوا عنك كل منصرف .
فصاحبي صادق لإشك فى صدقه ، ولكن الذى أخشاه ألا تصدقه .
تفن الخير له ألا أذكر إسمه ومن الخير لى ألا أذكر أنا الإسم الذى ذكره ، فهو اسم لا يحمله أحد فى العالم لا فى مصر وحدها بما يتناسب إليهم

من أقوام وبما ذاع عنهم من أحاديث ملأت الدنيا جميعاً في يوم من الأيام .

إن الإسم الذى ذكره اسم فتى صغير ليس من المفروض أن يكون على أى قدر من الثراء فطبيعة ما سمعناه عنه تقتضى أن يكون مستوراً لا مليونيراً ولو سألناه أو سألنا المدافعين عنه من أين لانها لوا علينا بالأجوبة ولكن المؤكد الذى لاشك فيه أن أحد لن يصدق حرفاً من أجوبتهم .

وإذا شاء محقق صحفى أن يتصل بى ويسألنى عن صاحب الرواية التى سمعتها فى مياه البحر وعن صاحب الإسم الذى ذكره فأنا على استعداد أن أذكره بشرط واحد ، أن يتعهد المحقق الصحفى بتحرى النبأ وتتبعه وليس فى الأمر سر يخفى ولا سرقة فتستر إنما هو عطاء شريف فى عملية مقولة تقدم من فتى فى أول حياته العملية ففاز بها وكل الذى نبحت عنه هو « من أين » فلا داعى هناك للإخفاء أو التستر ، سيجد المحقق الصحفى الطريق أمامه مفتوحاً على مصراعيه ميسوراً لسالكيه مرحباً بمن يسير فيه وأكمل محدثى فى الماء الحديث فقال .

تقدم هذا الشخص الأسطورة إلى الشركة وقال لها إذا كان الأول لم يستطع أن يقدم خطابات ضمان بخمس عشرة فى المائة من قيمة المقولة فهانذا أقدم إليكم خطابات ضمان بثلاثين فى المائة من العملية . ورسا العطاء عليه بطبيعة الحال .

وللقصة بقية لانهلوا من طرافة فقد جمعت مناسبة من مناسبات الأفراح بين أخت محدثى ووالدة الشاب الأسطورة فإذا الأم تقول للأخت - فلان بك (محدثى) يدخل فى عطاء مع إبني فلان

- ٣٦ -

(الأسطورة) وهل إبنى قده . إن إبنى عصفورة صغيرة لا تحتمل ثروة فلان بك (محدثي) .

وتنتهى القصة وأتساءل . إذا كان وهو عصفورة قدم ثلاثين فى المائة فى حين أن المطلوب خمس عشرة فماذا هو صانع حين يصبح نسرا . قصة أقدمها إليك تقرأها فى هذا الحر اللافح وهذا القيظ الشديد وكل رجائى ألا تزيد وطأة الحر عليك . وألا تجعل القيظ غيظا . وقالك الله من الحر والغيط جميعا انه سميع مجيب .

كان الله في عون التاريخ

شرفت بعضوية مجلس الشورى منذ إنشائه ولا أذكر أنني كتبت شيئا أعلق به على موضوع تحدثت فيه داخل المجلس ولكنني في هذه المرة مرغمت أن أختط لنفسى خطة تخالف ما جريت عليه حتى اليوم فقد بدأ النقاش بحديث من الزميل الكريم بطرس تناول فيه أحزاب ما قبل الثورة بهجوم قاس عنيف وكان هجومه جائحا لم يتحسب فيه استثناء ولم يفصل مفرقا بين عهد وعهد أو فترة وفترة ورأيت فيما سمعت ظلما تأباه النفس وجورا لا يقبل الصمت فطلبت الكلمة للتعليق وقلت ما معناه أن تناول الأحزاب قبل الثورة لا يجوز أن يكون بهذه الصورة في مجلس له احترامه وتوقيره عند الناس وأن أحزاب ما قبل الثورة هي وليدة ثورة تعتبر من أكرم ثورات التاريخ وإننا نكبر الحرية التي نعيش فيها اليوم لأننا عرفنا الحرية قبل الثورة ورجوت الزملاء الأعضاء أن يراعوا المسؤولية التي نحملها على أكتافنا حين نتكلم في المجلس الذي يحظى بين الناس بكل إجلال وتوقير.

وحدث أن خرجت من الجلسة لبعض شأني غير متوقع أن يكون هذا الذي قلت موضع نقاش أو تعليق من أحد فوجئت بإسمي يتردد بين ردهات المجلس في ناقل الصوت الذي يذيع الجلسة في حجرات المجلس فأطفاأت سيجارتي وسارعت إلى القاعة لأجد الأستاذ موسى صبرى يكلم كلمته التي لم أسمع أولها وطلبت الكلمة لأرد على ما سمعت منها ورددت ولا أحب أن أعيد ما قلت فضبطة الجلسة كفيلا بذلك . ثم فوجئت يوم الخميس بخطاب من الأستاذ سعد فخرى عبد النور منشور بجريدة الأخبار وبتعليق مفصل من الأستاذ موسى صبرى وجدت أنه أصبح من الحتم على

أن أفضل ما أجملت حتى أزيح عنه اللبس الذى عراه نتيجة الإيجاز والإشارة دون الشرح والإفاضة .

فواقع الأمر أننى حين تحدثت عما قبل ثورة ٥٢ لم أقصد ما سبقها مباشرة وإنما قصدت فترة من الزمن توغل فى أعماق التاريخ حتى تصل إلى أحداث ثورة ١٩ الخالدة .

فالذى لا شك فيه أن الديمقراطية فى هذه الفترة كانت موجودة وجوداً فيه بعض النقص ، وكيف لدولة يحتلها محتل بجيشه وسلطانه وله فيها النائب والظفر والكلمة الأخيرة أن تتمتع بديمقراطية كاملة .

وقد كان الشعب المصرى حين ثار ثورته فى سنة ١٩١٩ ويحاول أن يزيح المحتل كله ولكن المحتل كان يزحزح أقدامه فى ثقفل وفى بطء مقيت ، وهو يملك القوة الغاشمة التى لا تقف أمامها قوة فلم يكن عجباً أن يقبل الشعب المصرى كل باب أو نافذة تصل بينه وبين الحرية الكاملة التى يقاتل من أجلها ويسعى لها سعيها وهو مؤمن بها كل الإيمان وحصلت مصر على تصريح ٢٨ فبراير ونتج عنه دستور ٢٣ وكان هذا أكبر خطوة نالتها مصر فى طريق الحرية ، وقد وضع الدستور جماعة من أكبر فقهاء القانون واعتبر العالم الدستور المصرى من أعظم الدساتير العالمية ولكن لا بد لنا أن نذكر أن هذا الدستور قد وضع فى ظل الإحتلال .

ولذلك نجد فيه مادة لا يمكن أن يقبلها شعب حر على الإطلاق وهى المادة التى تعطى الملك الحق فى إقالة الوزارة إذا وقع الخلاف بينهما وهى مادة جعلت الدستور متناقضاً مع نفسه كل التناقض فكيف ينص فى مادة منه على أن الملك يملك ولا يحكم ثم يعطيه فى نفس الدستور حق الإقالة إلا أن يكون المحتل بجبروته قد فرض هذه المادة فرضاً حتى يظل الأمر فى يده

فإن حق الإقالة ما دام في يد الملك ومادام الملك يدين في بقائه للمحتل وحده فالأمر إذن أولاً وأخيراً في يد الإنجليز المحتلين وما أحسب أن حزب الوفد انتفع بشئ في حياته جميعاً قدر النفع الذي أفاده من هذه المادة فإن رئيس الوزراء الوفدى لم يقدم استقالة إلا مرة واحدة على طول الحياة النيابية في مصر ، أما في المرات الأخرى فلم يكن يخرج من الوزارة إلا وقد أقاله الملك ، وكان الوفد يحكم ويرتكب ما يرتكب من أخطاء ويبدأ الشعب في معرفته على حقيقته من تقرب للأصهار واستثناءات وتجاهل لمواد الدستور ثم تأتى الإقالة من الملك فتغسل عن الوفد جميع أخطائه وتعيده إلى شبابه الأول ويعود أغلب الشعب إلى الالتفاف حوله . وهكذا أصبح الأمر كما قال الدكتور هنيكل باشا أن الديمقراطية هيئات لها أن تصبح كاملة في مصر وفي مصر احتلال ومثلك يخضع للاحتلال . وفي ظل الاحتلال كان الخلاف بين الأحزاب اختلافاً حول تصرفات وأشخاص ولم يكن اختلافاً حول مبادئ فببداى الأحزاب جميعاً كانت تؤشك أن تكون متطابقة ، وكانت المادة الأولى فيها جلاء الجيوش الإنجليزية عن مصر .

ولنبر الآن من الحديث العام إلى الحديث عن الوفد منذ جاء على أسنة الحراب في فبراير سنة ٤٢ الإنجليزية إلى أن أقيل في ٨ أكتوبر سنة ١٩٤٤ ثم حين عاد في سنة ١٩٥٠ ولست أفكر أن أتحدث عنه حديثاً مفصلاً فإن المجال لا يحتمل هذا ولكننى أكتفى بأن أذكر الذين عاصروا هذه الفترة بالاعتقالات التي قام بها الوفد لعلى ماهر باشا وغيره لحساب الإنجليز وإسقاط عضوية مجلس النواب عن مكرم عبيد باشا واعتقاله لحساب حزب الوفد . واختلطت مصالح الاحتلال بمصالح الوزارة الوفدية ولم

تعارض وكانت الحجة عند المحتل أنه مستتبك في حرب عالمية ولكن الوفد لم تكن له حجة . وأقبل الوفد في سنة ١٩٤٤ ثم عاد بأغلبية ساحقة في سنة ٥٠ .

ألم أقل لك أن الإقالة كانت تطهره أمام الشعب تطهيرا . وحين عاد حزم أمره أن يمالي الملك بكل الوسائل وسمعنا عن النحاس باشا حين لم يكن له مطلب في الحياة إلا أن يقبل يد الملك الطاهرة وقد كانت في ذلك الحين أشد ما تكون تلوثا . وإن لم تكن هذه الواقعة صحيحة فقد سمعنا في أمرها تشكيكا فالذي لا شك فيه ذلك التصريح الذي أدلى به النحاس باشا حين سئل عن شأن من شئون الحكم وكان الملك في ذلك الحين في كابري فقال « إن كابري قبلة يجب أن نتجه إليها جميعا » وهكذا جعل الملك قبلة وكعبة .

وصنع الوفد ما صنع بأعضاء مجلس الشيوخ من القمم الشائخة وطردهم وغير المضبطة ولو أنني لا ألومه كل اللوم على تغيير المضبطة هذا فإدام الإنجليز هم الذين أمروا فإنه لا يملك إلا الخضوع . ولكن مهما يكن الأمر فإن الإنسان لم يكن في هذا العهد بكل سوءاته هالعا على يومه وغده وكانت العقوبة القصوى هي الإعتقال وكان هذا جميعه في ظل ملك فاسد وجيش شرس أجنبي محتل .. ولهذا كان من الطبيعي أن يفرح الناس بقيام ثورة ٢٣ التي أعلنت أنها تقوم للمحافظة على الدستور .

ثم .. ويل لنا من ثم .. ألغى الدستور جميعا . فكان شأننا شأن من استعان بطبيب لينقذ مريضا ، فإذا الطبيب يطلق الرصاص على المريض .

- ٤١ -

وخرج الإنجليز . وكنا نظن أننا سحتمي في ظل حكامنا وقد أصبحوا لأول مرة في تاريخنا من أبناء مصر دماؤنا دماؤهم وعرضنا عرضهم فلذا مصر تصبح وهي حرة من المحتل رعشة خوف ولوثة مذعور فالعرض مباح والدم مهدر وكل قيمة في الحياة محطمة محترقة فهي هشيم وجف ماء الحياة وزاغت الأبصار وارتعدت الفرائص .. كل الفرائص . وحدث ما حدث ونزل بنا من الكوارث ما نزل حتى جاء المغفور له صاحب الأيدي الناصعة على تاريخ مصر أنور السادات فرد إلى النفوس الطمأنينة وإلى الوطن والعرب الكرامة وتوج حياته بالسلام .

ونحن اليوم في حكم حسنى مبارك نحقق من الآمال ما هفونا إليه حين تخلصنا من الملك الفاسد ومن المحتل الغاشم . وما صبونا إليه من حرية لا مثيل لها .

فالمقارنة التي عقدتها إذن في مجلس الشورى كانت بين ما كان قبل ٥٢ وما بعدها من حكم الطغيان .

وقد عرفت أن الأستاذ موسى صبرى قال فيما قال أنني ارتجفت غضباً . علم الله يا أخى موسى أن رجفتي كانت لك لا عليك . ومالى لا أرتجف وقد كانت الجرائد حتى في حكم الوفد الذى أدينه اليوم تطلع كل يوم مليئة بالهجوم السافر على رئيس الوفد ووزارته وعلى الملك في بعض الأحيان في حين نفيت أنت من الصحافة جميعاً لأنك نجرت فكيتت نقداً لمذبة في التلفزيون . وهذا بعض ضئيل من كل فظيع مريع سفاح . إن التاريخ الذى نذكره اليوم لم يصبح بعد تاريخاً وإنما هو واقع عشناه واصطلينا ناره ونعمنا فيه من حسنات . فلذا كنا نختلف فيه اليوم فإلى أى مصير هو صائر حين يصبح ساعاً لا عياناً . وذكري لا واقعاً .. كان الله في عون التاريخ .

المنافق الشجاع

شجاع غاية الشجاعة . جبان أشد الجبن .. يزأر كالأسد الأغلب الكاسر . ويموء كالقط الرعيد الذليل .. وله لكل حالة ملبس ولكل موقف وجه ولكل قوم مظهر ولكل جلسة نغمة .

يمدح غاية المديح فيبلغ من النفاق أحط النفاق وأرخصه ، حتى إذا خلا بمن يأمن شره ويثق أنه لن يمحض به الأرض أو يمزق منه الأوصال هاجم في شراسة وعدا على كرام الناس في وقاحة من لاجيء عنده . وفي سعار من لا عرض له .

رأيت مع صديق لي أجله وأحترمه . وهذا الصديق لا يقبل الضيم قادر دائماً على أن يرد العدوان بمثله إن لم يكن بأشد . رأيت المنافق الشجاع أمامه كقط ذليل يسوق له المديح وأبلا بغير حدود ويتزلف له في خسة وضراعة يوشك أن ينحني على يديه يقبلها ظهراً لبطن ، ورأيت الصديق الذي أجله ينجل من المديح ، ويتواضع ويبحث عن شيء من الألفاظ ترد عنه عادة هذا المديح وكان الرجل الكريم يعلم أن رأى المنافق يبتعته الرغب ويعلمه النفاق ، حتى أذن الله وانفضت الجلسة ثم لم تمض إلا أيام قلائل وجمعتني والمنافق دعوة لم يكن فيها ذلك الذي أوسعه نفاقاً منذ أقل من أسبوع . وكانت الدعوة تضم السيدات والرجال ، وكانت جلستي قريبة من المنافق وقدم صاحب الدعوة المدعوين بعضهم إلى بعض وكان بين السيدات سيدة نجهل أن اسمها اسم الأسرة الذي يحمله الصديق الذي كان موضع التكرم والإجلال من المنافق الشجاع وما هي إلا لحظة حتى وجدته يسأل السيدة .

- ألك قرابة بفلان ؟

فقلت السيدة فى تواضع .

- إنه أخى .

وإذا المنافق الشجاع يقول دون أن يمكسك لسانه بعض الحياء من وجودى أو بعض الأدب المفروض فى الحديث إلى السيدات .

- إنه أسخف لإنسان عرفته .

وإذا السيدة تقول وقد وقفت عن مجلسها .

- إنه أخى وإنى أحبه كل الحب ولا أسمح لأحد أن يتحدث عنه فى

غيابه وتستطيع أن تقول رأيك فيه له هو إن أردت أما أنا فاسمح لى أن

أنصرف عن مجلس يذكر فيه إسم أخى بهذا الأسلوب .

وانصرفت السيدة عن مجلسنا فى أدب ودون أن يرتفع لها صوت أو

يعلو منها حس ، وقد كان المنافق الشجاع يعلم أن السيدة لن تسمح

لنفسها أن تفعل أكثر مما فعلت فهو يعلم من طول ما عاش الحياة كيف

يتصرف الكرام .

أما أنا فلم أطق صمتاً وسألته .

- قل لى أيها الرجل أليس الشخص المقصود هو نفسه الذى رأيته

منذ أيام قلائل تسكب عليه غدقا من المديح أو شكت أن تغرقه به .

ولكن للمنافقين فلسفة خاصة . ربما كانت فلسفة حقيرة مهينة ولكنها

ترضيهم عن أنفسهم . وتهب لهم الأمن والطمأنينة .. فإذا يقول لى .

- وماذا كنت تريدنى أن أقوله له ، لو أننى قلت رأيى الحقيقى لما أمنت

أن يضربنى ضربة قد تودى بحياتى .

ومرة أخرى لم أطق صمتا .

- ٤٤ -

- كنت تستطيع ألا تكيل له المديح أو الذم . وأنت تعلم أنه يعرف رأيك الحقيقي فيه لأنك تعلم أن رأيك فيك شر من رأيك فيه . أما وقد نافقت ما نافقت وعلى مشهد مني فكنت تستطيع على الأقل ألا تقول لأخته ما قلته الآن حتى لا أزداد احتقاراً لك .

- ولكن رأيك لا يعني .

- ذلك لأتني لا أضرب الناس وإن كنت أعتقد الآن أن هذه قاعدة ينبغي أن أخرج عليها من حين إلى آخر . وعلى كل حال ما شأن أخته التي لم ترها إلا اليوم حتى تجرحها في أخيها وهو غائب .

- أريد أن أقول رأيي .

- فإذا بلغه ؟

- واضح أنها سيدة فاضلة ولن تنقل إلى أخيها ما سمعته مني حتى لا تجرحه فالفضليات من السيدات لا يحببن أن ينقلن إلى الناس إلا ما يسعد الناس . فما بالك وهو أخوها الذي تحبه . لاشك أنها لن تخبره حتى لا تغضبه .

- وحسبت أنت الحسبة في الحظاظ وأعلنت رأيك في هذه الحسبة إذن فاعلم أنني ناقل هذا الحديث إلى صاحبه .

- لو كنت أعرف أنك ممن ينقلون الحديث ما قلت الذي قلت .

- اسمع الحقيقة أنني كنت احتقرك احتقاراً شديداً حتى لقد كنت أحسب أنه ليس هناك من سبيل إلى مزيد لهذا الاحتقار .. ولكنني أهنتك فقد بلغت من المهانة مكانة لا يبلغها إلا أنت وأهنتك فقد نجحت أن تجعل احتقاري لك يزداد أضعافاً مضاعفة أهنتك .

- شكراً .

- ٤٥ -

ليس الصديق الذى كان ميسوع المديح والهجوم نكرة فى الناس ولا هين الشأن بل هو رجل بعيد الصيت واسع الشهرة له شأن عظماء الرجال الكثيرين الذين يحبونه حباً عميقاً صادقاً . وله أيضا الأعداء الذين يغيظونه أشد البغض . ومن لا يغيض له ولا رأى له . وهو صاحب رأى وهو يعلنه فى غير مداراة ولا تحايل وإنما هو يصدع به أعداءه فى علن الكرام وفى صدق أصحاب الرسالات لم يكن عجيباً إذن أن ينتقل إليه هذا الحوار جميعاً من شخص آخر آثر الصمت فى الدعوة التى جرى فيها الحديث ، ولم يعلن أنه يعرف الشخص موضوع الحديث .

لقيت الصديق الذى أجله وسألنى فتأيت أن أقص عليه شيئاً مما حدث وعرف هو أنى أداور بالحديث لأننى ولا أثبت فأدرك صحة ما بلغه فهو يعلم أننى لا أريد أن أكذب وهو يعلم أننى أربأ بنفسى عن التهمة والإيقاع بين الناس . فلست بهذا ، فإذا الرجل يقول فى كبرياء .

- أنا لا أشكرك فثلك أتوقع عنده ما قلت . أما هذا المسكين الذى تريد أن تستر عليه فاعلم أنه مفضوح بما ينشره على الناس . وأنا لا أغضب من أى إنسان يسبى فى غيبى فحسبى شرفاً إن أمثال هؤلاء يخشوننى ولا يجراؤن على مهاجمتى إلا حين أكون بغير مشهد وحين يكونون بعيدين عن حضرتى .

وقلت فى صدق :

- وهذا ما أتوقعه عندك . وهكذا يكون شأن الكرام .

ومن الهدم بناء

في قديم الزمان منذ ألف عام ونيف قال المتنبي :
 وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحكا كالبكا
 والعجيب أن هذه المضحكات تزداد على الأيام ارتفاعاً وتزداد دواعي
 البكاء فيها شدة وشناعة ..

ارتفع قوم بغير ضمير بعائرتهم .. وسارعوا فباعوها حتى يتحمل غيرهم
 البلاء كله متمثلاً في ما لهم أول الأمر ثم متمثلاً في حياتهم جميعاً .
 وكان من الطبيعي أن تصرخ مصر ويعلو منها الضجيج أن بين أبنائها
 أقواماً تجرد إلى هذا الحد من الإنسانية بل وتجرد أيضاً من بعد النظر لأن
 أدوات البناء من أسمنت وحديد لا تقبل الرشوة وتأتى أن تسكت على
 ما يرتكبون ولا بد لها أن تعلن احتجاجها ليس على الورق وإنما هو انهيار
 وقضاء على أرواح وعلى مستقبل أقوام لا تفرق حين تقتل بين شخص وآخر
 وإنما هي تقتل الجميع في غير عقل ولا رحمة .. ولماذا ترحم قوم أقبلوا على
 شراء هذه الشقق دون أن يتحققوا من أن البناء قام فيها على أسس هندسية
 سليمة ورخصت ببنائه الجهات المختصة في إعطاء الترخيصات .. وحين
 يعلن الأسمنت والحديد رفضه سيصبح الملاك ومهندسوهم جميعاً مسئولين
 وهكذا تخلى عنهم بعد النظر أيضاً ..

وحين أصبح انهيار العمارات ظاهرة .. وحين أصبح لا يقتل من يقتل
 فقط من أفراد وإنما تعدى ذلك إلى سمعة مصر التي تحتاج إليها لتعيد
 الطمأنينة الممزقة التي ورثتها عن أيام القهر .. تصدت السلطات لهذه
 الظاهرة وصدر القانون بهدم كل بناء قام بغير إذن ..

وبدأت الجهات التنفيذية تمارس في تطبيق القانون .. فإذا بأقلام
مصرية ويمسك بها أدميون من بنى الإنسان تصيح بالذين يطبقون القانون
أن ما يفعلونه ظلم وطغيان .. وأن الهدم لا يستغرق إلا لحظات في حين
يحتاج البناء إلى سنوات .. وقد نسوا أن الذى حدث ليس هدماً وإنما هو
بناء .. هم يهدمون بضعة طوابق ويبنون هبة دولة بأكملها .

ما هذا الهراء أيها الأدميون .. أبقى البناء حتى ولو أدى إلى قتل من
فيه .. أبقى البناء لتتأخر في كل يوم عمارة على ساكنيها وعلى سمعة مصر
وكرامتها .

أبقى العمارات لتتحدى القانون وتجعل منه أضحوكة .. أن بلداً لا
يحترم فيها القانون بلداً جديدة بأن تمحى من الوجود .. وأن شعباً يعيش في
بلداً بلا قانون شعب مشرد تائه يأكل الناس فيه بعضهم بعضاً والشرعية
بينهم السلاح والتقرب من ذوى السلطان ويومذاك يصبح الفرد في هلع
وفي حيرة مهلكة بلا حماية .

فالقانون وحده هو الحماية .. وأن الإبقاء على العمارات التي ارتفعت
بغير إذن قتل للقانون وقتل لهيبه الحق . وهيبة الدولة وحين تصبح الدولة
بلاهية تسقط الحياة جميعاً ولا تستحق أن تعيش .

إن الذى أقام هذه العمارات أقامها على باطل فهي باطل ولا بد أن
يسحق الحق والقانون كل ما هو باطل .. وإن قوماً سكنوا هذه العمارات
هم واحد من اثنين إما جاهل لم يحاول أن يعرف كيف أقيمت هذه
العمارات وهكذا يصبح مغفلاً والقانون لا يحمي المغفل . وإما مغامر قامر
بخيائه وبماله راجياً أن تغضى الحكومة عنه عينا إذا سكت عنه الأسمت

والحديد ولم ينهارا عليه وعلى أسرته وعلى المغامر أن يقبل كل ما ينتج عن مغامرته .

والدفاع عن هؤلاء من ملاك إلى مشترين من ملاك أو مستأجرين جريمة أضخم من جريمة المالك الغشاش السفاح .. لأن الدفاع عنهم دفاع عن تمزيق القوانين وعن قتل الناس وعن القضاء على سمعة مصر وكرامة القانون وهيبة الدولة .

وهاتان عارتان قد سقطتا في يوم واحد في الإسكندرية والقاهرة .. وتزداد الكارثة في كل يوم هولاً واتساعاً .. ونسمع وويل لأرواح الناس مما نسمع - أن التنفيذ قد أوقف في بعض العمارات حتى تحكم المحكمة .. ترى هل الأسمنت والحديد عندهما خبر بالانتظار حتى تحكم المحاكم وهي التي تغص بالمقاضين وهيئات أن تفرغ قبل وقت لا يعلم أحد مداه إلا الله سبحانه في علياء سمائه .

وإذا كان الأسمنت والحديد قد بلغها هذا الذي قيل فهل يستطيع أحد أن يسألها إن كانا يتتويان الانتظار أم سيفضان على السكان بغير إذن من المحكمة أو من أى جهة أخرى .

ولقد يتصور بعض الناس أن يجرم المجرمون القتلة من أجل مزيد من المال وإن كان الذين يرتكبونه تمزيقاً لكل معاني الإنسانية . ولكن كيف نتصور أن يدافع عن هذا أصحاب أرقام يريدون أن يقيموا من أنفسهم زعماء .. علم الله أن زعامتهم لن تكون إلا وبالا عليهم .. لأنهم لا يتركون عملاً تقوم به الدولة إلا هاجموا في شراسة حتى حين تحافظ الدولة على هيبتها وهيبة القانون في وقت معا ..

- ٤٩ -

وليس مقبولا أن يقال أن أزمة المساكن اليوم تدعو إلى التهاون في تطبيق القانون .. فنظرة واحدة إلى هذه العمارات التي خالفت نجعلنا ندرك فوراً أنها لغير الذين يعانون من أزمة السكن وإنما هي للأثرياء الفاحش ثراؤهم وأغلبهم يريد أن يحسن بها مسكنه أو يتاجر فيها .. فأغلب هذه العمارات إن لم تكن جميعها من السكن الفاخر وليس فيها ما بنى ليواجه أزمة الشعب في المساكن .. ومحاولة اللجوء إلى هذه الحجة رفع لشعارات على الهواء تعود هؤلاء الكتاب أن يرفعوها كلما وجدوا إلى ذلك من سبيل . حتى وإن كان هذا على حساب مصر .. نعم وإن .. حتى وإن كان على حساب القانون .. نعم وإن .. حتى وإن كان على حساب هيبة الدولة .. نعم وإن .

لابد للمد أن ينحسر

ماذا أصاب النسيان المصرية ؟ وأى شيطان هذا الذى سيطر على موضوعاتها ومؤلفيها ومخرجيها ومشاهديها فى وقت معاصر . كيف أصبحت المواقف والحانات فى مصر هى تاريخ مصر . وكيف أصبح الداعرات والراقصات وبائعات الهوى والقوادون هم أعلام مصر الخفاقة وهم الساسة والأبطال وهم المجد والفخار أيتصور هؤلاء المؤلفون وأولئك المخرجون أن مصر ماخوذة كبير لايمثله إلا هذه الخثالة التى تسحقها نعال من يتعاملون معها قبل أن تسحقها نعال الآخرين .

إننى بما أشاهده اليوم من أفلام وما أراه من إعلانات سينمائية أعتبر أن الدعارة قد عادت إلى مصر عودة رسمية مظفرة تحف بها مواكب الطبل والزمر والدعاية والإعلان .

وقد كانت قبل أن تلغى متخفية مستخفية إذا ذكر أحد أمرها ذكره همسا فى حياء .

ولكن الحياء سقط وأسفرت الدعارة عن وجهها المقيت فى أفلام الكتاب والمخرجين .

والعجيب فى أمر هذه الأفلام أنها حين ترتطم المخططات لابد أن تجعل منهن ضحايا وأنهن الطاهرات العفيفات البريئات التى أرغمن الزمان على ممارسة المهنة الويلة والأفلام بعد ذلك تدور كلها حول ظلم المجتمع لها تيك الداعرات وكأنهن ما ظلمن أنفسهن ولا ارتكبن خطيئة ولا اشتكن مع من اعتدى عليهن فيما صار إليه أمرهن .

والذى نعرفه أن الزنا لا يتم إلا بطرفين ، والذى يعرفه الناس أن أحدا لا يستطيع أن يصل إلى امرأة تأبى ذلك إلا أن يكون ذلك بحريتها الكاملة وما شاهدت فيلما إلا وجدت التى يريدون أن يجعلوها منها ضحية كانت تستطيع ألا تكون ضحية فى كل الظروف التى يفتعلونها افتعالا والتى يدبرها المؤلف فى سداجة بالغة التهافت وربما لا أستثنى من ذلك إلا حالة التهديد والاغتصاب وتلك حالات نادرة كل الندرة ، والنادر لا يصلح أن يكون قاعدة إلا أن يتاجر به المنتجون والمؤلفون والمخرجون .

إننى أتصور أن المنتجين والمؤلفين والمخرجين الذين يقدمون هذه الأفلام قد ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا تجار خطيئة ، وإذا كان تاجر الخطيئة يمارس تجارته متسترا فى همس فهم يمارسونها علانية يذيعون أنباء تجارتهم بكل وسائل الإعلان .

وإذا كان تاجر الخطيئة يمارس تجارته مع أفراد فهم يمارسونها مع جاهير وشعوب .

وإذا كان تاجر الخطيئة ساقط الحياء وضيعا فهم أشد منه فجراً وأنكأ منه فحشا وأسقط حياء وأحط وضاعة .

أيدرى هؤلاء ماذا يصنعون بالفتيات وهم يغلبون عليهن ألا بأس عليك يا فتاة أن تحطى فلأنك ستعبرين حينئذ شهيدة جار عليها الزمن ولم تجر هى على عرضها وعرض أيها وأمها وشرف إخوتها وأسررتها جميعا .
أيدرى هؤلاء التجار ماذا يصنعون بتاريخ مصر وقد جعلوا معامل الجغرافية المواخير والحانات وبيوت الدعارة ومعالمه التاريخية الداعرات والقوادين والساقطين والفاشليين والمنحرفين والشذاذ والمهترئين من البشر .

أيدري هؤلاء ماذا يصنعون بمصر اليوم وهم يقدمونها إلى العالم كله على هذه الصورة التتة وكأنها لم تلد من فتاة إلا الداعرة ولا من رجل إلا القواد والشاذ فنحن إذن لسنا أول دولة في العالم العبرى تصبح فيه المرأة على هذا المستوى الرفيع السامق الذى نشرف به اى بلد في العالم نزوره .
إن المرأة عندنا شرف وعفة وملائكية وأمومة في بيتها وهى في مجالات الأدب فخار ومجد وفى ميادين العلوم رفعة واعتزاز لمصر جميعا وللمصريين بل للعرب بل للإنسانية جمعاء .

ومصر في رجالها أعظم من أن نذكر فضلها ولا سبيل أن نخطط بعظمتها وبغناها في رجالها . فإن غنى مصر الأول والحقيقى إنما هو بما تملكه من عظماء في كل ميدان . هى رائدة الثقافة العربية العلمية والأدبية والفنية على السواء .

وهى التى تصدر اليوم الكفاءات الشاهقة من علمائها إلى أعظم البلاد تحضرا .

فلماذا يريدون أن يجعلوا مص--- العالمية برجالها على هذه الصورة .
أكل هذا من أجل بضعة أموال يجمعونها . أوليس هناك من سبيل آخر لجمع هذه الأموال . أتراهم لو قدموا فذ لا دعاة فيه يخطئهم المال .
أم هى نفوسهم وماركبت عليه من حب الاتجار بالخطيئة . أم هانوا على أنفسهم وهانت عندهم كرامتهم فهم يصرخون على ملأ العالم أنهم تجار خطيئة ويفخرون بالخزى . ويعتزون بالدلة . ويباهون بالفجور .

إن هناك دولا أوربية مازالت بها الدعاة رسمية ونشاهد أفلامها فإذا هى رفيعة المستوى فى موضوعها وفى فنها على السواء .

- ٥٣ -

ومعروف أن الفن هو كيف تفنّون وأننا نرى أفلام هذه الدول إذا تعرضت لموضوع داعر فإن هذا يكون استثناء نادراً لا يكون سمة ولا يشكل موجة . ثم هم حين يفعلون يجعلون الداعر داعرا والشريف شريفاً ولا يداغون عن الخطيئة وكأنها هي سنة الحياة .

فإذا كان هذا في بلاد ليس فيها ما في بلادنا من تقاليد شرقية وتعاليم تقدس الحياة النقية والعرف ترى الشرف حياة والموت دون العرض أسمى مراتب المجد . فكيف سولت هؤلاء المنتجين والمؤلفين والمخرجين نفوسهم أن يعصفوا في شراسه ضاربة بكل مقدساتنا وتقاليدنا وتعاليمنا وأعرافنا أن أشد الأقوام عدااء لمصر لا يستطيعون أن يسيثوا إليها كما يسيء هؤلاء المصريون ببطاقتهم . الشياطين الكافرون الفاسقون بتحقيقتهم واتنامهم .

وأنا لا أطلب الرقابة . فواضح أنه لم تعد هناك رقابة . فإن اسم أى فيلم من هذه الأسماء كان كفيلا وحده بالرفض بادیء ذى بدء . وقد أحسن الوزير فعلا حين منع فيلمين ولكن الأمر أفدح من مجرد فيلمين . لقد أصبح الأمر ظاهرة ولذلك فإن أطلب الجمهور أن يتيقظ لما يريد أن يصمه به هؤلاء الداعرون من إقبال على السقوط وما يريدون أن يصموا به مصر من خزي .

ولكننى واثق أن كل موجة إلى انحسار . وأن الجمهور إن أقبل على مثل هذا الهوان فترة فهو مرتد عنه من فوره . وفي البلاد التي يسمح فيها بالأفلام الداعرة أصبحت دور السينما خالية من عرض هذه الأفلام وانحسرت هناك الموجة لأن الجمهور الذى أقبل سرعان ما أصابه القرف وانصرف متعافياً أن يرى الإنسان وهو ينقلب إلى حيوان .

فيا أيها المنتجون ويا أيها المؤلفون ويا أيها المخرجون قريباً ستعرفون إلى أى منقلب أنتم ساعون ولن يخلف الله مواعده .

نيام على غير مضاجع

من الناس أقوام مارسوا الكتابة عدداً وأتاحت لهم الظروف أن تظهر كتاباتهم وأغلب الأمر أرغموا الظروف أن تتيح لهم الطلوع على الناس بما يكتبون فطلعوا ومرت الأعوام فما أحس بهم أحد فلا النقاد اعترفوا بهم ولا القراء أحسوا بوجودهم فكان طبعياً أن يقفوا خارج الحلقة ليسبوا كل من فيها ويهاجموه في ضراوة لا مثيل لها ، وبغير ذوق فنى وبغير إبداء أسباب فليس إلى الحق يهدفون ولا هم ينشدون العذل فيما يعيبون إنما بغيتهم الوحيدة هى أن يهاجموا آملين أن يحطموا المشاهير في مظنة منهم كاذبة أن لو تحطم هؤلاء لن يبق غيرهم في الميدان ، ولو كانت بهم مسكة من عقل لأدركوا أن هؤلاء المشاهير غير قابلين للتحطيم لأنهم لم ينالوا شهرتهم بالحظ أو بالبساطة وإنما نالوها بموافقة الغالبية العظمى من قراء اللغة التى يكتبون فيها عربية كانت أو كانت غير عربية ولو كانت بهم بقية من ذكاء لأدركوا أن اختفاء هؤلاء المشاهير بالوفاة أو الصمت لن يتيح لهم أن يظهروا لأن الشعب حين قبل العالقة قبلهم لأنهم عبروا عنه وحين رفضهم هم رفضهم لأنهم غير صالحين لمخاطبته ولم يرفضهم لأنه مكثف بكتابة فالشعوب دائماً تحب أن يتعدد كتابها ويفكروها .

وهكذا لم يكن عجباً أن نجد هؤلاء الضائعين في تيه الأدب يتخيرون القمم الشبماء ليهاجموها محاولين أن يقضوا على ذوابتها فإذا هم يتهاونون إلى سفجها وقد تحطموها جذاذاً وتمزقوا خرقاً .

وقد واجه طه حسين وشوقي والعقاد والمازنى وتوفيق الحكيم وعزيز أباطة ومحمود تيمور وغيرهم من العالقة ألواناً من الهجوم شتى وأفانين من القذف بلغت في بعض الأحيان مبالغ الوحشية الشرسة الطاحنة فما زادهم

هذا الهجوم إلا بريقاً وتوهجاً وما ازداد المهاجمون إلا انطفاء وخفوت ذكر.

والرغبة في الشهرة عند المهازيل تشكل نوعاً من السعار الجنون الذى يجعلهم يستهينون بكل ما يتصل بشرف الآدمية فوجد منهم من يحاول أن يحدث أى تفجير ليحدث به دوىا وحتى ولو كان هذا التفجير سينسفه هو نفساً حتى لا يبقى منه على شئ.

وليس يعنيه أن يصدم شعور الناس ويعتدى على مقدساتهم ويدمغ الكرامة بالهوان والنبل بالحسنة وما أصدق المتنبي حين قال :
من يهن يسهل الهوان عليه . ما لجرح مبيت إيلام
فيوجد واحد منهم يكتب كتاباً لا يستحق فيه أن يذكر أنه كان لصاً وتاجر متعة وذلك منه وصول من الخسيس إلى هاوية لم تعرفها البشرية فأصعج هذا المهن فى مألوف أمرهم يسترونها على أنفسهم ولا يعلنون بها إلا حين تقتضيهم المهنة أن يعلنوا فما رأينا لصاً يباهى بأنه لص ولا تاجر أعراض يفاخر بأنه يمارس تلك الصنعة إما أن ينشر هذا فتلك جديدة فى السفالة والانحطاط والهوى إلى غير قرار ومن عجب أنه بعد ذلك يظهر على الناس ويهاجم كل شريف فى الحياة حتى أصبح الشرفاء يعتبرون الهجوم منه وساماً لا يدانيه وسام وشرفاً يحزنهم أن يفوتهم .

ونجد آخرين يهون كل جليل فى حياتنا وكل سامق من تاريخنا القديم والحديث على السواء وهو - للأسف الشديد - مدرك عواقب هذا الذى يفشيه من آثار وبيلة تقع عليه أولاً ثم هى بعد ذلك تثير نفوس الأغلبية الكاثرة من الناس فى مصر وفى الشعوب العربية كافة ولكن ماذا يهمه مادام هو قد أحدث التفجير الذى ينشده وليكن هو أول الضحايا وليكن التاريخ من بعض ضحاياه ولتذهب مشاعر الناس إلى الجحيم .

وإني أحس أنه بما يصنع ير.. أن ينتقم من البشر أجمعين ماداموا هم لم يكسبوه الشهرة التي أرادها لنفسه ولم ينزلوه من نفوسهم المنزل الذي يتوهم أنه حقيق به .

وآخرون كانت كتاباتهم هذا لم يخطها إلا مهلوس مجنون لا يعي مايقول وكان من الطبيعي أن يعيا الناس عن فهمه ويعتبروا ما يكتبه لغة أخرى غير لغتهم وكان من الطبيعي أن ينصرفوا عنه كأنه لم يوجد . وكان لا بد لمثل هذا وللآخرين من أمثاله أن ينأوا ولا سبيل إلى نوم مع الشعور بالفشل والإحباط فهم إذن يختالون على أنفسهم ويتخادعونها عن الحق وينسجون من الوهم ما يجعلها تظمن صاحبها أنه نابغة سبق زمانه وأن الذين أصابتهم الشهرة إنما اقتضوها بماء وجوههم وبما أنهم جهلاء يخاطبون جهلاء وبما أنهم تافهون لا يرتفعون إلى السماوات التي تخلق فيها نحن بأفكارنا ولو أننا نافقنا الناشرين وحاولنا إرضاء الناس بكتابهم ماتستجيب لهم حواسهم الساذجة الفجة لأصنا من الشهرة ما لم يصب أولئك المهازيل الذين يتصدرون الحياة الأدبية في هذا الزمن النكد فكل زمان لا يشتهرون فيه زمن نكد وأن شهرتنا قادمة لا شك في قدومها وينامون .

ولو أنهم لم ينأوا وحاسبوا وهم حساب عقلاء لا حساب مهلوسين لتبينوا أن الشعوب لا تبغض أحدا قدر بغضها للمنافقين ولها في كشفهم عيون راصدة لا تنام وليس يخفى عليها من أمرهم خافية وأن للشعوب عقلاء تسجل كما لا تسجل أحدث الآلات الإلكترونية وقد تنسى الشعوب ولكن لأنها تريد أن تنسى وهي حين تنسى يكون ذلك منها عن إدراك لا عن غيبة وعى أو غفلة .

وكم من نافق وهوى به نذقه إلى أسفل درك فليس كل نفاق ناجحاً
وإن نجح شخص ما بالنفاق فشل به نفسه ماث من الناس والمناق قصير
مدى الخطى منكشئة حياته هزيل نجاحه ومهما يبلغ بنفاقه من سلطان فهو
عند الناس محقور الشأن لا وزن له ولا قيمة .

وإن كان النفاق سبيلاً ممهداً في عالم الوظيفة فهو طريق مغلق في عالم
الفكر والأدب والفن بعامه .

فقد يجتد المنافق في عالم الوظيفة من يبصقه إلى منصب ولكنه في عالم
الأدب والفكر ليس له إلا الناس ملاذاً وهم وحدهم من يرفعون شأنه
علماً أو يخسفون به الأرض ليكون موطئ نعال .

أما وهمهم أنهم سبقوا عصرهم فهو باطل بطلاناً أصلياً ليس له من
زوال فإن الكاتب ابن عصره يستمد منه ويعطى له وبما هذا خلد الشعراء
والكتاب على مدى الزمان فإن الأجيال حين تتسلم المشاهير بعضها من
بعضها تتسلمها بعصورها وبالأزمان التي عاشت فيها وعبرت عنها وما كتب
لها الخلود إلا لأنها كانت من مرايا عصرها ومن أضوائه ولو أنها حاولت أن
تعبّر عن غير عصرها أو تكتب لغير زمانها لأصابها الفشل الذريع ولا تمتعت
الاجيال أن تتداولها إلى الخلود .

وبعد أفتراني قد أصبت بالإحباط قوما استكانوا إلى أوهامهم واطمأنوا
إليها وانقضضت أنا على سكينتهم وأوهامهم فعصفت وأذعرت طائرهم
وأسلمتهم إلى اليأس قد أكون ولكن البتر بالعضو الأشل أخلق وإن عليهم
أن يفيقوا إلى حقيقتهم ويبحثوا عن عمل يتقنونه بدلاً من أن يناموا بغير
مضاجع على أرصفة طريق ليس طريقهم فهم فيه غرباء ولا أمل لهم أن
يصبحوا من أهله اللهم بلغت اللهم فاشهد .

لأبد لها من وقود

كريم هو الله رؤوف بعباده شفوق بما رحمة منه ، استطاع الإنسان عبر العصور وعلى مر الدهور أن يتحمل الآمه وأن يصبر نفسه على البلاء . تتداول عليه أيام النحس والسعود . والنحس من بعد سعود شر أنواع البلاء . فإذا هو صابر صادق . وتصديق عليه الآيات الكريمات « كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » « سورة الدخان » .

ويذهب هؤلاء إلى الجحيم أو يغفر لهم ربهم فيوفهم جزاءهم فإنه سبحانه هو العدل المطلق ولهذا فاليأس لا يداخل أبناءهم من رحمة الله ولا يمسهم قنوط ويسعون في الحياة سعيهم . منهم من يتبع الطريق الأقوم ومنهم من يحيد وجميعهم على شوك الحياة صابر . لقد خلق الله هذا الإنسان من قوة لا تماثلها قوة ومن ضعف لا يدانيه ضعف هو قوى حين تتصل أسبابه بالرحاب القدسي وحين يتجه بروحه إلى الملكوت الأعلى فإنه حينئذ يصبح وقد عجزت مغريات الأرض جميعاً أن تلحق به .. قد ترجح خطاه في أول الطريق وقد تراوحه من متع الدنيا أقسام تتخلج لها نفسه بين أقدام وإحجام حتى إذا سيطر على نواذعه وتملك أمره وزجر الدنيا . ازدجرت وأصبح هو أقوى ما عرفت البشرية .. إنه الإنسان الذي حمل الأمانة بيده أن يختار المتعة العاجلة واللذة العابرة والنساء والمال وكل ما يقدمه الشيطان من إغراء أو يخوض في غير هذا ينظر إلى الآفاق العليا

- ٥٩ -

من السماء وتصبح هذه الدنيا جميعا بكل ما يحكمه الشيطان فيها هباءة لاقيمة لها الإنسان سيدها وجبارها .

وهو هو نفسه عبد الله الخاضع له ، أُنِخِبت إليه وسجد مع الساجدين وسبح بإسمه واجداً في عبوديته تسيده ، وفي خضوعه جبروته ، وفي إصابة كرامته عزته . وفي سجوده بمجده وكبريائه .

وذلك الإنسان بلغ ما بلغ بإيمان داخل هو واحد من النجدين الذي هداه الله . وطريق من طريقين : وهو الطائر الذي في عنقه ليختار حراً في اختياره بين لذة سريعة في الدنيا وبين متعة خالدة في الآخرة ، ومتعة الدنيا حاضرة ماثلة يشهدها بكل حواسه يراها بعينه ويشمها ويسمعها ويلمسها . ومتعة الآخرة [إ]مان في النفس لا يزيد على مجرد شعور لم يره ولم يشمه ولم يسمع ولم يلمسه وإنما أدركه بقلبه . ثم أمعن فيه بعقله وملأت كلمات الله أقطار الدنيا حوله حين يقول سبحانه عز من قائل : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » ، فإذا الإنسان المؤمن يصبح هذا العملاق السيد الجبار الخاضع .

هذا السيد وهذه العبودية وذلك التجبر وذلك الخضوع هو مصدر سعادة لا يعرفها إلا من كان مثله . وهذه السعادة يقطع الإنسان طريقه الوعر الخشن بين أنياب البشر الحادة وبين أضراس الدنيا الفاتكة تغريه بكل فتنها أو تذله بكل ظلمها ويظل هو ذلك السيد العابد عازفاً عن فتنه الدنيا ومتكبراً على إذلالها فلا تملك إلا أن تنحسر عنه هي خاضعة ذليلة . يعمل فلا يعمل إلا فيما يشرف ويسعى فلا يسعى إلا في النور . والناس أغلبهم لا يحبون الشرف ولا يحبون النور .

فقد أوهنتهم الدنيا أن يقاوموه وأذهم سلطانها أن يخضعوها .
هؤلاء المساكين من الناس هم الفئة الغالبة . ضعاف . لا لأنهم لم
يتسبيدوا الدنيا ويتغلبوا على أنفسهم فإن هذا أمر شاق عسير لا يطيقه إلا
من كان عاتى القوة فذاً عملاقاً .

أما هم فمساكين لأنهم حينما يلقون بأنفسهم إلى أضراس الدنيا تظل
تمخضهم بين نخس وسعود وبين مرتفع وحضيض وتمضغهم فتفقد
نفوسهم احترامها لأنفسهم ويصبحون دون أن يشعروا في دفاع الهول
الويل وأى هول يلقاه إنسان شر من احتقاره لنفسه وبغضه لها واستصغارها
لشأنها . هذا الإنسان الحقير هو شر عدو للإنسان الذى تمكن من الدنيا
وحرمها أن تتمكن منه .

وقد يكون الإنسان الضعيف مالكا لمال لا يخصيه عددا ولسلطان ليس
له أمد وقد يكون الإنسان القوى مقترا عليه فى الرزق وليس له من
السلطان نصيب . ولكن وبغزة الله وقدرته يصبح الغنى الباذخ الغنى أمام
هذا الفقير حشرة أو أقل شأنًا . ويصبح ذو السلطان الشاهق العريض أمام
من اختار سلطان الله متسولا يستجدى منه قبسة هينة معا يسعد به من
راحة ضمير . وهذوء خاطر واطمئنان حياة . وثقة بالنفس ولا يستمددها إلا
من ذلك الإيمان وتلك الثقة بالله الواحد القهار .

وتصبح الدنيا عند ذى المال والسلطان هى حياته الواحدة فهو يعلم أنه
لو فقدها فالحجيم مثواه فى الناحية الأخرى . فهو أحرص ما يكون على
هذه الدنيا والدنيا لا تذلل أحدا قدر ما تذلل حريصا عليها . فقد يزول ماله
ويدمر عليه سلطانه وتصدق عليه الآيات الكريمة من سورة الدخان ولكنه
يظل متشبثاً بالحياة وإن كان فيها يتسول المطعم أو كان فيها ذليلاً عبداً للبشر

ولما يلقونه إليه من فئات ويحاول أن يسى ولا يستطيع أن ينسى قوله سبحانه وتعالى « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه » « سورة الانشقاق » فهو يخشى هذا اللقاء فهو لم يعد له في حياته شيئاً .. كان في فم الدنيا الجائعة أكلته وكان يخيّل إليه أنه يأكلها وامتصته وكان يتوهم أنه امتصها حتى إذا أفاق إلى نفسه استبانت له الحقيقة . لم يبق منه إلا ما يصلح للحريق .

مسكين هذا الإنسان . حمل الأمانة وما كان كفؤاً لها والذي خلقه يعلم ضعفه بل لا يعلمه إلا هو . وهو سبحانه يمهد بالغفران طريق الخاطئين ويغرس بالرحمة سبيل الضائعين . ولا يرفض في رحاب رضوانه إلا المشركين الذين يجادلون فيه عن جهالة . ويصدون عن وحدانيته بالحادهم وعن ملكوته بكفرهم أولئك هم التائبون حقاً . وأولئك هم وقودها .. وأنه لابد لها من وقود .

أغريب أنا إذن

مصرى أنا بكل نسمة هواء أنشقتها . مصرى أنا بكل لحظة من لحظات حياتى ، مصرى أنا وهى رغد وسعادة وهناء ومصرى أنا وهى مهزومة ومصرى أنا وهى منتصرة ، ومصرى أنا وهى تغدى الإسلام والعروبة بدمائها الذكية وبحر مالها ، ومصرى أنا وهى سلام ومصرى أنا وهى محتلة بالامبراطورية أو محتلة بحالة البشرية وشرادم الدول ومطاريدها ومصرى أنا وهى تسترد أرضها جميعا مصرى أنا وهى مكبلة ومصرى أنا وهى حرة عزيزة كريمة على ترابها لعبت ، دمي كل نقطة فيه مصرية خالصة . تعلمت فى مدارسها وعرفت قريتها من أبعد أعماق قريتها وعرفت الشوارع والحارة والعطفة والزقاق ، ليس فى مدنها مدينة لم أزرها ، زيارة عابرة أو زيارة متأنية . لم أغرب عن مصر فى حياتى أكثر من شهر فلغنى لغتها وتصرفى تصرف الخالص من أبنائها وإشارتى مطبوعة على جوار ، من إشارات أبنائها . لا أتصور أن إنسانا ما يمكن أن يكون مصرى أكثر مما أنا مصرى . لم أشعر فى حياتى بغير نبضها وما يعينى فى العالم مجد إلا مجدها . أنا بعض من أنفاس الليل والنهار بين ربوعها ، أنا ذرة من ترابها ، أنا نقطة من نيلها أنا ورقة من أشجارها أنا نبتة من حقولها أنا صدى الأذان فى سماءها . فإذا حل بى فى هذه الأيام ، لقد أصبحت وأنا ذلك الرجل أحس أنى غريب فى مصرى هذه التى أنا منها نفحة وهى منى كل أمى وكل أبى وكل زوجى وكل إبنى وكل بنتى وكل بيتى . ولكنى غريب فيها هذه الأيام أترى هى غربة عن مصر أم غربة عن الزمن . أنا غريب .. فعن أى المصدرين غربتى أهى غربة عن بلدى . أم غربة عن زمنى . لكم تمنيت أن

تكون غربة عن الزمن إذن فيشكرنى فى غربتى كل أبناء جيلى فى شتى أنحاء العالم ولكن كم أنا أسيف حزين . .

أنا غريب عن مصر هذه ولست غريبا عن الزمان أنا أقدر وأقبل ولا أعجب لجرى الحياه فى شتى دول ومختلف أمصار ، أنا عنها غريب بدمى وبمولدى وبنشأتى . ولكن ما يجرى فى مصر اليوم جعلنى أحس فى كثير من اللحظات يومى أننى غريب . فأنا بين واحدة من اثنتين كلتاها أشد مرارة من الأخرى إما أن هذه ليست مصرى التى ولدتنى وإما أننى أنا لم أعد أنا الذى عهدت نفسى . أجلس أمام التليفزيون وأسمع كلاما يقولون عنه شعرا . وأنا رجل صناعى فى الأدب والشعر أعرفه منذ نطقت الكلام وحفظته ورويته وصنعتة . ليس ما أسمع شعرا ولا هو ثروكت قد تعلمت فى مدارس مصر أن الأدب هو البيان والبيان أهم ما فيه هو البوضوح . لا بيان فيما أسمع ولا وضوح إنه كلام لا أعرف كيف ركب صاحبه ألفاظه ليجعل منها جملا غير مفيدة هل ما أشاهد وأسمع جملة مركبة أو جريمة ترتكب ولكن التليفزيون المصرى الذى يحمل لواء الدولة الدولة المصرية يذيع هذا الكلام ... فأنا إذن غريب عن مصر . وأقرأ أخبار الناس فأجد النبالة قد رحلت عنا وأجد الطهارة أصبحت استثناء وأصبحت السرقة وخيانة الأمانة والاختلاس والإعتداء على أموال الشعب هو الأصل ... ليست هذه مصر .

لا شك أن لكل زمن لصوصه وثأبيه ولكنهم كانوا هم الاستثناء وكان الأصل هو الأمانة - فكيف انقلب الأمر كل هذا الانقلاب . كان الأمين على خزانه إذا مس منها حوكم سواء أعاد ما اختلس أو لم يعده لأن الجريمة تتم بمجرد تحويله المال الذى كان لديه أمانة إلى مال خاص له .

ولأننى أعلم اليوم أن الجريمة تسنط إذ هو أعاد المال الذى اختلسه إلى الخزانة . والكارثة أن هذا يحدث بحكم مجرى العمل اليومى وليس بحكم القانون الذى لم أكن أتصور أن يخطمه فى يوم من الأيام مجرى العمل اليومى . فأنا إذن غريب عن مصر .

اقتصاد مصر يدمر وتنصب عليه الأيدي العابثة من كل جانب والعمال لا يعلمون والإنتاج يتضاءل والتبجح يتسبد ولا عقوبة لمسئ ولا مثوبة لمثقف . ويختلط الكسول الجامد الحس الوقح بالنشيط ذى الحياء ويصبح كلاهما سواء فى المنح والعلاوات والترقيات . فأنا إذن غريب عن مصر . المتعلمون أشد جهلا من الأميين والمثارة الكبرى من الأزهر الشريف أصبحت جامعة مثل كل جامعات العالم وهى التى كانت منفردة لا مثيل لها فى العالم أو فى التاريخ ومن كرسىها الموصول بالعمود صنعت كرسىها الجامعات جميعا وتصدع حصن اللغة العربية وهدمت حصونها وأصبحت لغة القرآن غريبة مثلى فى بلد الأزهر الشريف وأحد الجامعات وعلمها الفرد وأسمع فى التلفزيون والإذاعة لغة غير التى أعرفها ... لا هى العربية التى تعلمناها ولا هى العامية التى نشأنا نسمعها وإنما هى شئ آخر حقير لا لون له ولا دلالة ولا مفهوم . فأنا إذن غريب عن مصر . وأرى الأفلام .. وويل لمصر من أفلامها دعارة وخدر وسكر وانحدار كل هذا بغير القصة التى تعودنا قراءتها ومشاهدتها على شاشات السينما . مصرية كانت الأفلام أو أجنبية وأسمع أرقام الإيرادات وأجور الممثلين فأصبح وأصبح .. فأنا إذن غريب عن مصر . وأبحث عن مسارح الدولة فيقولون إن الممثلين الكبار نزحوا إلى حيث المال الوفير فى السينما والتلفزيون وأسأل وهل بدأ هؤلاء الممثلون كبارا أما كانوا شبابا شداة صنعوا مستقبلهم على خشبة المسرح ثم انتقوا إلى سماء النجوم وحضيض المال -- فلماذا لا يعمل المسرح بالشباب

الجديد المتخرج فى المعاهد الفنية والنصوص المصرية موجودة فى تاريخ المسرح المصرى وفى حديثه والنصوص العالمية لا تمتنع على أحد يستطيعون أن يعرضوها مترجمة أو ممصرة . لا أجد الجواب . وقد نشأت منذ أنا طفل لا يكاد يعى أجد فى مصر مسارح عددا . فأنا إذن غريب عن مصر . وأرى مسلسلات التلفزيون أشاهد منها ما يمثل فى الريف فأجد زيفا غير الذى عجننت فى جنباته كل جارحة من جوارحي .

إنه ريف لا أعرفه ولا يعرفنى .. لا هو إلى الدلتا ينتسب ولا هو إلى صلة بالصعيد يمت . ريف يصنعه المؤلف وفق هواه ويحسب أنه إذا أقلب القاف جيا على لسان الممثل فقد صنع الريف وإذا كانت الرواية فى القاهرة فالهول الأخذ والزيف المشين وكلنا يعرف القاهرة وما فى بيوت القاهرة أنها قاهرة أخرى غير تلك التى يرزؤنا بها المؤلفون فى التلفزيون . فإذا تغاضينا عن التضييل فى رسم مصر من ريفها إلى حضرها وحاولنا أن نبحث عن لمحة من فن أو ومضة أصالة من الدراما فسعيننا خائب وبخشنا هباء وقد رأينا أفلاما مصرية غاية فى الروعة ورأينا مسرحا مصرية غاية فى الرفعة والأصل فى الفن أن يزداد على الأيام أصالة وشموخا وتفردا . والأصل فى الفنانين أن يزدوا البناء الذى تركه لهم السابقون سموقا وعلوا . ولكن للأسف هدموا البناء القديم وما أقاموا مكانه شيئا . وما هكذا مصر .. فأنا إذن غريب . وأخرى لا تقل هولاء عما يحيط بنا أن عضو النيابة هو وكيل النائب العام هو الرجل الذى أنابه الشعب ليحرك له الدعوى العمومية ضد كل من يعتدى على حق من حقوق أفراد الشعب وهو من باب أولى المنوط به تحريك هذه الدعوى إذا اعتدى شخص ما على قيم هذا الشعب وتراثه وثقافته . فكيف إذن يقيم وكيل من وكلاء النائب العام الدعوى على التراث الأدبى وهو جزء من تاريخ هذا الشعب .
(نيام بلا مضاجع - ٣٢)

- ٦٦ -

إن وكلاء النائب العام محتم عليهم أن يعرفوا ما هو التراث الأدبي ومحتم عليهم أن يكونوا على وعى بجانب كبير منه . ترى هل فكرت النيابة العامة في هذا التراث وفي عدد الأجيال الضخم الذى صاحب فيه هذا التراث الشعب المصرى ألم يفكر لحظة لماذا لم يقم واحد من زملائه السابقين على مدى مئات السنين بتحريك الدعوى العمومية طوال هذه السنوات أم يريد هو اليوم أن يصحح خطأ وقعت فيه أجيال النيابة المتعاقبة على مدى التاريخ أم تراه يتدع فى وظيفة النيابة العمومية بدعة جديدة . فيصبح وكيل النائب العام الذى هو وكيل الشعب سلاحا على الشعب بدلا من أن يقوم بوظيفته الأصلية فيكون سلاحا لصالح الشعب أنا لا أدري .

فأنا إذن غريب عن مصر وأخرى أدهى من كل ذلك وأمر . أرى الشيوعيين قد طفوا على سطح الإعلام المصرى فى شتى نواحيه وبجالاته وأوشكوا أن يصيغوا مصر المؤمنة الأصيلة بلون الدم . وقد عاشت مصر حياتها جميعا وهى مصر الأزهر حتى بعد أن أصبح الأزهر جامعة . وعاشت مصر من مشرق التاريخ دار الحضارة لا العدوان والحب لا القهر والإخاء لا التمزق . وإن تكن فترات قد مرت بها نضب فيها الحب وتسيد العدوان فقليل ما كانت تمكث هذه الأوقات . وأنا من أكثر الناس علما أن الرئيس حسنى مبارك رجل مؤمن عميق بالإيمان الديمقراطية مذهب . الإسلام دينه والحب ديدنه . والشرف رايته . إذن فما هذا الذى يحدث فى لإعلام المصرى .. أنا إذن غريب عن مصر .. وأستطيع أن أمضى فى الحديث فلا أقف ولكننى أحس خنجرا يغوص فى قلبي مع كل كلمة يخطها قلمي فحسبى وفوق الحسب ما انغرس فى قوادى من خناجر .. والله وحده هو الموئل وما خاب .

جاهلية جديدة

حين جاء الإسلام كان المجتمع العالمى كله يقوم الأساس فيه على القوة المادية الباطشة . فالسيد هو من يملك السلاح والمال والعييد وكانت هذه الأعمدة للسيادة واضحة كل الوضوح فى المجتمع القبلى الكائن فى جزيرة العرب فالبطش بالإنسان هو المظهر الأول للسيادة وكثرة العبيد والمال هى المعالم التى ترفع الإنسان بين قومه والانهلال الخلق وانعدام القيم وفوضى الأمور هى السمات الأساسية التى تقوم عليها شئون الجماعة . وعبادة الفرد هى العبادة . وما كانت الأصنام حبيبة إليهم إلا لأنها كانت تنأى بالإنسان عن التفكير وتجعل المجتمع يقبل ما يزرع فيه من تعبد للأفراد . فما كانت الأصنام إلا ألقعة لهؤلاء السادة حتى يعبد الناس الأصنام فى ظاهر الأمر بينما هم فى الحقيقة يعبدون السادة الذين يحمون هذه الأصنام ويدافعون عنها بأرواحهم .

والشعر الجاهلى ملئ بالأمثلة التى تؤيد هذا المذهب الذى يؤكد أن الفرد الغاشم كان هو الحاكم المطلق السيد الذى لا يرد له أمر واسمع معى عمرو بن كلثوم فى معلقته :

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تغر له الجبابر ساجدينا
وهذا المعنى تكرر فى كل الشعر الجاهلى الذى نظمته شعراؤهم فى الفخر .

وتلك عجيبة من العجائب . فما الذى يجعل الجبابر يسجدون للرضيع الذى لم يصنع بيديه شرفا ولا قدم لمجتمعه فضلا إلا أن يكون الجبابر

خائفين من قومه ذوى البطش والجبروت .. وربما قيل أن هذا الشعر كان تفاخرا كاذبا ولا يدل على واقع الأمر . وهذا القول حق ولكن يظل هذا الشعر مع ذلك يمثل ما يهفو إليه أبناء المجتمع الذين ينطق الشعراء بلسانهم من جعل الناس وعلى رأسهم الجبابرة ساجدين لقومهم مرتعدين منهم خائفين مرعوبين من سطوهم .

وكان من مظاهر السطوة كثرة المال وما كان المجتمع يعنى فى قليل أو كثير من أين يحصل صاحب المال على ماله وهكذا كان السادة يشترون الإماء ويجعلون منهم تجارة وبيعون المتعة لمن يشتريها ممارسين بذلك أحقر ما يمارسه إنسان فى مفاهيم الفترة التى أعقبت ظهور الإسلام وكان الأثرياء السادة لا يرون أى بأس أن يكونوا قطاع طريق يسرقون المال بالقوة ممن لا قوة له ولا حول ويعود قاطع الطريق بعد أن يرتكب جريمته ليصبح بكل وقاحة سيذا فى قومه يخزله الجبابرة ساجدين . وكانت المرأة متاعا لا أكثر حتى أننا نجد الدكتور هيكى فى مقدمة كتابه الخالد « حياة محمد » يقول أن المرأة فى عصر من عصور الجاهلية لم تكن زوجة لفرد وإنما كانت زوجة للقبيلة كلها وما كان على الذى يريد أن ينفرد بها إلا أن يغرس عصاه خارج خيمتها فيعرف أفراد القبيلة أن واحد منهم فى خلوة معها ويرتد عن الخيمة بما فيها ولا أقول من فيها فقد كان الذين بداخلها فى تقديرنا نحن حيوانات وما كانوا آدميين .

وتم الخيانة إذا خلا بالمرأة واحد من غير أفراد القبيلة ويقول الدكتور هيكى أنه حدث . مرة أن اجتمعت القبيلة جميعا أمام خيمة امرأة لها فلم يجدوا أحد منهم غائبا فاقتحموا الخيمة واكتشفوا أن أمراتهم تخونهم فقتلوها هى ومن معها وهكذا كان المجتمع متحللا منهارا أبشع ما يكون

التحلل والانهيار وظهر الدين الجديد يصيح « لا إله إلا الله الله أكبر »
 إذن فالأفراد ليسوا آلهة وإذن لن يعبد الناس أفرادا من الناس وإذن
 لاسادة هناك ولا عبيد وإذن سيستلب الدين الجديد كل مظاهر السيادة
 التي يرتع في نعمائها السادة الذين يتاجرون في المتعة والذين يغتصبون أموال
 الناس وكراماتهم افكا وبهتانا وعنوة بلا حق لهم فقد كان الحق غريبا في
 دنياهم يكاد لا يجد له مأوى إلا عند قلة نادرة هي التي سارعت إلى
 الإسلام أول من سارع وإذن فلا تجارة في أجساد البشر ولا كسب من بيع
 المتعة وإذن فلا اعتداء على أموال الناس ولا عدوان على كرامتهم ولا على
 مقدراتهم . ويوغل الإسلام في تخطيم سلطانهم فيسوى بين الرجل
 والمرأة في الحقوق ويجعل الذمة المالية للمرأة منفصلة عن الذمة المالية للرجل
 ويحدد حقوقها في تفصيل لم تعهده البشرية من قبل إذن فالعتاة المستكبرون
 لن يستطيعوا حتى أن يمسوا أموال زوجاتهم . ما هذا الدين ومن أين
 جاءهم ليقضى على كل ما يلغون فيه من دماء البشر .

ويزداد الدين وضوحا وتتوالى آياته أن فضل الإنسان على الإنسان
 لا يكون إلا بتقوى الله والإخلاص في عبادته وحده لا شريك له والتصدر
 في عبادته وحده لا شريك له والتصدر في المجتمع يكون بالعطاء لا بالأخذ
 أو النهب والعطاء لا يكون بالمال فحسب وإنما بالنفس وبالمعاملة وبالتحية
 ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه لوال له هو أبو موسى
 الأشعري . أس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع
 شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . ويرن هذا الخطاب في
 سمع الأجيال حتى يصبح في زماننا الأخير واحدا من أسس القوانين العالمية
 وماله لا يكون وقد حرص فيه أمير المؤمنين أن يحاسب القاضي أو الوالى

نفسه في تامة وجهه وفي الجهة التي يتسمتها هذا الوجه فلا يقبل على شخص ويعرض عن آخر يالهوان المجتمع الجاهلي إذن وبالصيغته إن الإسلام قد قلب كل الموازين وسحق كل العرف الذي كان سائدا كما قلب الأصنام وسحقها إن هذا الدين الذي صنع ذلك جميعه في فترة من أقسى قترات التاريخ على الإنسان سواء كان هذا الإنسان في الجزيرة يحيا أم كان يعيش في مكان من أطراف المعمورة بل لعل الأمر كان أشد وأنكى في فارس وبلاد الروم وهما الإمبراطوريتان اللتان كانتا على قمة عالم ذلك الزمان ولذلك لم يكن عجيبا أن ينهار سلطانها أمام مبادئ الإسلام البالغة السموق .

ولكن ماذا حدث بعد ذلك أما الإسلام فقد اشتد عوده وأصبح يكتسب مع مرور الزمان قوة وعنفوانا ويتجدد جديده بالانتشار وبمقارنته بجميع النظم الأخرى التي تحكم المجتمعات ولكن يالهول لكن هنا عاد كثير من المسلمين إلى الجاهلية الأولى . وعاد الاتجار بالمتعة يتسيد بمجتمعات كثيرة وأوشك تاجر المتعة أن يعلن عن بضاعته في وسائل الاعلام الحديثه التي تنطلق الكلمة فيها فإذا هي تتردد في أسماع العالم أجمع وسقط الحياء عن هؤلاء التجار ويوشك بعضهم أن يباهى بتجارته .

وعاد المال إلى التحكم في المجتمعات الإسلامية فهو السيد الذي لا سيد غيره وأصبح القوى هو الذي يأخذ لا الذي يعطى وأصبح الرفيع المقام هو الذي ينهب لا الذي يعدل .

وتفجرت الذرة فإذا السلاح هو أداة المال في التحكم وفي وضع الأمم في منازلها التي يختارها لها المال بمعونة من السلاح وحاربت الدولة المسلمة

الدولة المسلمة وفشا في الدول لعربية سرطان حاكم لا يسمع عن حرب إلا زج بنفسه فيها يعين من يحلو له أن يعينه بلا فكر أو تدبر أو نظر إلى صوالح دولته أو جماهيرته كما شاء أن يسميها في جنون أخرج مضحك منك في آن معا .

وانقسمت جماعات الفدائيين على بعضها البعض وحارب الأخ أخاه وكلاهما نبت قضية واحدة وهب حياته لها ثم عدل عن ذلك وسفح دماء نفسه من أجل وهم وبلا مبدأ جلى ولا سبب فيه لمحة من منطق .
لقد عاد مسلمون كثيرون إلى جاهلية أخرى جديدة هي أسوأ من الجاهلية القديمة وأعظم رزءا من كل ما واجهته المجتمعات الإسلامية على مر العصور .

ولكن الإسلام أقوى وهو قادر أن يرد الغاوين إلى رشاد والصابئين إلى مستقيم الصراط والله غالب على أمره إلى أبد الآبدين .

الله ... الله فيم تكتبون

يبدو أن عودة الحرية بعد غيبة طويلة جعل معالمها غير واضحة . وألقى على سماتها ظلالاً من ضباب حتى أصبح بعض الكتاب يخلط بينها وبين الفوضى الغوغائية .. وراح هؤلاء الكتاب يبحثون لأنفسهم على حساب الحرية عن بطولات تدعو إلى الأسي . والأسف والحزن . فما هم بكتاب صغار ولا هم في حاجة إلى هذا النوع المحرب من الكتابة ملقين بمستقبل مصر إلى جحيم اصطلوا بسعيه أكثر مما اصطليها .. وكواهم لظاه أكثر مما اكتوى به غيرهم .. وأحرق نيرانه سنوات غالية من حياتهم .. وقد كنت أتصور أى شيء إلا أن يطلع علينا هؤلاء الكتاب بدعوة إلى الثورة .. والدعوة منه موجهة إلى فئات هي أبعد ما تكون عن حب الوطن أو مراعاة الله أو تحسب الضمير .. فبعض هذه الفئات ينتمى بولائه لغير مصر . وينتمى بعقيدته لغير الله بحكم المذهب الذى يدينون به . وبعض منهم آخر كانوا السوط في يد الطغيان وكانوا النار المحرقة وكانوا المشاركين في الاعتداء على الأعراض والأموال والأرزاق .

وكانوا هم المعينين على خراب مصر التي مازالت تعاني آثاره حتى اليوم أثلثك هي الحرية .. علم الله أن الحرية براء منهم إلى يوم الحساب .. أما الفئة الأولى فهي تركب خيول الحرية والديمقراطية وإطلاق الرأى جاهدة أن تسعى بها إلى الحكم ويومئذ لا كان هذا اليوم ولا شهد الوطن أبداً - فلا حرية هناك بل القهر والقتل وسفك الدماء وكتم الأنفاس وإطلاق الفساد وإعدام الدين . وإعلاء الإلحاد . والإتناء إلى الشيوعية

العالمية التي لا ترى لأحد حقاً في أن يكون وطنياً ولا تسمح لصاحب دين
سماوى أن يعبد الله .

وأما الفئة الأخرى فهي الفئة الباغية التي ضرب الخبث في تاريخها فهي
الفساد والإفساد والقتل والتعذيب وتحطيم القيم وهدم كل ما هو سامق نبيل
في حياة الإنسان .

عجيب مذهل أن يدعو كاتب مثل هذه الفئات أن تنور .. ومن أجل
ماذا ... من أجل الحرية .. يالك من مظلومة أبها الحرية .. يركبك
الراكبون ليقتلوك .. ويصبح بك الصالحون ليكتبوا أنفاسك .. ويرفعوا
أعلامك الوضاحة المشرقة ليمزقوها ويحرقوها فلماذا هي ذرات من رماد أو
هشيم .

ويصبح الكاتب الذي أربأ بقلمى أن يذكر اسمه حفاظاً منى على
كرامته وقدره . أن الانتخاب بالقائمة النسبية . عدوان على حرية الشعب
وقع للديمقراطية واعتداء على قدسيتها .

ولا أدري من أى مرجع دستورى جاء بهذا الرأى الساذج إلا أن
يكون الكاتب يريد أن يصبح فى غير ماداع للصياح ويتظاهر بالغضب من
أجل الديمقراطية دون أن تكون الديمقراطية غاضبة ولا رافضة ولا هي
تشعر أن القائمة النسبية تمس قدسيتها من قريب ولا بعيد .

وقد كنت أرجو - والكاتب ليس هين الشأن - أن يرجع إلى المراجع
الدستورية ويتحرى الأمر قبل أن يجرى قلمه بما جرى به . فليس الأمر
صباحاً ولا يكون الكسب فى ميدان الرأى للصوت المرتفع ... ولا
للضجيج الفارغ الخالى من البحث ..

فليس الأمر هتافا وإنما هو علم ودراسة وتعمق وتفهم والنظرة العاجلة البريئة من الهوى والبحث عن بطولة زائفة تدرك أن الانتخاب بالقائمة النسبية. تعمل به دول ديمقراطية تعتبر من أعظم الدول في هذا المضمار وحسبى أن أذكر سويسرا وألمانيا الغربية والبلاد السكندنافية وغيرها كثير. وأنا من الذين يرون أن الانتخاب بالقائمة فيه تحضر ينبغي لمصر أن تسعى إليه .. فالاختيار في الانتخابات بالقائمة النسبية يكون للآراء والمبادئ والأفكار ولا يكون للأشخاص .

. وهذا يجعل الناخب يدرس الآراء وينتخبها ولا يعطى صوته للشخص لمجرد صلته به سواء كانت هذه الصلة متمثلة في قرابة أو صداقة أو منفعة ... وفي ظل هذا الانتخاب المعتمد على القائمة تمحى تماما أى مظنة لأى صلة بعيدة عن المصلحة العامة ولا يكون هناك مجال لما يعرفه الكاتب تمام المعرفة ولما يعرفه المصريون جميعا من وسائل انتخابية بعيدة عن النزاهة كل البعد .

والأصل في النائب أن يكون نائبا عن الدولة كلها وليس عن دائرته فقط .. ولكن واقع الأمر يجرى على عكس هذا تماما .. فالنائب المسكين مشغول ليله ونهاره بتعيين أبناء الدائرة ونقلهم وترقية أقاربهم وإدخال أبنائهم للمدارس والحصول على استثناءات لا يحظى بها أفراد الشعب الذين لا يكون نائبهم بهذا النشاط الذى لا اعتبره أنا وطنيا بأى حال من الأحوال .

. والنائب في الانتخاب المباشر يظل طوال فترة نيابته وعينه على الدائرة وأعيانها وأصحاب الجاه والسلطان والأصوات فيها فإن أرضاهم فقد

ضمن النجاح وإن عجز فالويل له والشبور والسقوط في الانتخاب والخروج من رحمة الله .

ولست أنسى ذلك النائب الذى أغدق على أفراد دائرته من الأموال العامة حتى اتهم وقدم للمحاكمة وجاءت الانتخابات والقضية التى تهم ذمته أمام القضاء فإذا المتأفات فى الدائرة تكتسحها .. حرامى .. حرامى لكن بنحبه وينجح المرشح المشكوك فى نزاهته نجاحا منقطع النظير .. أيرضى الكاتب عن هذا .. أيرى أن الانتخابات فى مصر على ماهى عليه الآن تتيح الفرصة للعالم والمثقف أم هى تتيحها لأقرب المرشحين إلى الناخبين وأكثرهم خدمة لمطالبهم التى غالبا ما تكون استثناء وخروجا على القانون واعتداء على عدالة الفرص ..

أيستطيع أستاذ فى الجامعة يحتاج المجلس التشريعى إلى رأيه وعلمه ودراسته وممارسته أن يقترب من دائرة انتخابية وينجح فيها .. ومن أين له هذا وهو مشغول بدراسته وبقضايا وطنه يتعمقها تعمق أستاذ عالم ... أنه إذا رشح نفسه يضمن السقوط الفادح إن شاء الله وأغلب الأمر أنه لن ينال مائة صوت من آلاف الناخبين ..

أيستطيع مثقف أن يرشح نفسه .. أيستطيع طبيب أو مهندس أو محام أو اقتصادى ... هيهات إلا أن يكون قد تنازل عن كثير من الوقت الذى كان يجب أن يكرسه لعلمه ليخدم مصالح الأفراد فى دائرته وأنى لأعلم أنه بين أعضاء مجلس الشعب اليوم وفى كل مجلس أساتذة عظماء . وكان فى مجالس قبل الثورة ساسة عباقره ولكنهم فى كل المجالس كانوا قلة نادرة ومصر اليوم تحتاج أن تكون مجالسها التشريعية زاخرة بكنوزها الثقافية ..

- ٧٦ -

فهى اليوم أشد ما تكون حاجة إلى علم العالم وجراته فى الحق. وقدرته على أن يعلن الرأى فى سبيل مصر لا من أجل أشخاص فى مصر. .
والانتخاب بالقائمة النسبية لن يبعد الموجودين اليوم ، فكل حزب لايمكن أن يستغنى عن النابهين فيه ولكن المؤكد أن عدد النابهين سيزداد وتصبح المجالس التشريعية قادرة على أن تواجه الأزمات التى تعانها .
فيا أيها الكاتب رفقاً بمصر ورفقاً بالحرية ورفقاً بالديمقراطية. واتق الله فيما تكتب .. فإن الكاتب أولى الناس بأن يخشى الله ولاء لوطنه ورعاية خلقه وشكراً لرب العرش أن حمله أمانة القلم .

الثور المذعوب !

سعار أصاب الرجل منذ البواكير الأولى من حياته أنفق عمره يتعلم لغات غير لغته العربية وله من الوقاحة ما يحاول به أن يكون أديبا في اللغة العربية وانتهت حياته أو أوشكت ولكن المسكين فشل أن يكون بين قومه أديبا وفشل أن يكون في اللغات التي تعلمها وأتقنها شيئا مذكورا أو غير مذكور .

إنه ثور أصابه سعار الذئاب المفترسه يريد أن يحطم الحياة من حوله ولكن لأنه ضئيل القدر هين الشأن حقير النفس وضعيف الفكر لم يحطم إلا نفسه .

هم أول ما هم باللغة والتراث العربي وراح يخارب كل ما هو أصيل في أدبنا وتراثنا ونظره الكليل المنحرف مصوب على أن اللغة العربية هي لغة القرآن وهو يظن بما ركبت عليه نفسه من اجتماع الثور والذئب أنه يستطيع أن يحطم اللغة ليبعد الناس عن القرآن وعن الدين واستقبله فيما تكالب عليه الفشل الويل وأحس الناس بما في هجمته من سعار فرفعوا المصاحف على الرؤوس وألجموه بما لا يطيق وانهالوا عليه رجاء فإذا الثور فيه والذئب جميعا يتمخضان عن كلب أجرب يضع ذيله بين فخذي الخلفيتين ويسارع في تلصص المجرمين يعدو باحثا عن محباً أمين يلحق فيه جربه وجراحه ويصمت حتى يهدأ ما ثار من الناس وحتى ينشئ عنه الراجمون وينساه الذين يقولون لا إله إلا الله محمد سيد الخلق رسول الله .

فإذا هدا الضجيج عاد المبدان مره أخرى يحاول فى غباء الثور وفى سعار الذئب أن يبحث عن قنص آخر بعد أن عزه أن يهاجم لغة القرآن ورأى بشائه بصره ومريض بصريته أن يهاجم من يجله المسلمون من عمالقة العلماء وأشراف الفقهاء وراح يرمى عليهم سخائمه ويخلق عنهم تهماً لم يسمع أحد أنها يمكن أن ترقى إلى أعتابهم . ولكن ذنبهم الوحيد أن العرب المسلمين يذكرون أسماءهم فى إجلال وإكبار وتقديس .. وذنبهم الأكبر عنده أن كل الفقهاء الذين نجاءوا بعدهم تتلمذوا عليهم أو على تلامذتهم . بل إن أعلام الوطنية والإخلاص القومى بأفكارهم إلى تعاليمهم . وهذه ذنوب عند الثور المذعوب لا غفران لها . فهاذا عليه لو أنه صدم فيهم مشاعر الجماعة وحاول أن يزيل هذه الهالة عن أفذاذ لم يذكرهم التاريخ إلا بما يشرف الرجال ويرفع صيتهم على أحقاب الزمان .

ومرة أخرى تداولته الحجارة وانهاى عليه المسلمون والعرب والوطنيون بسهام الحق يردونه عن قوم يكون لهم الاحترام والتوقير . ويلعنونه . ويحاول الثور المذعوب أن يلجأ إلى حرية الرأى . وإلى أن كل إنسان ينبغي أن يتمكن من إبداء رأيه مهما يكن شأن هذا الرأى وهو قول حق ولكنه يستر عند هذا الرجل بالذات بأطلا فادحا . فأولئك الذين يجرح مشاعرهم بهذه الوحشية ويسب لهم أعلام دينهم لا يستطيعون أن يمنحوا أنفسهم الحرية فى مهاجمة ما يقده هو وأمثاله من الذين يحاولون أن يخطموا المساجد وأشياخها على رؤوس مرتاديه ومريديهم لأن ديننا ينهانا أن نثير الفتن بين الناس . والفتنة عندنا أشد من القتل بينما هى عند الثور المذعوب هدف حياة ونشيدة عمر وهب نفسه لها لا يرم عنها ولا ينثنى .

وبلغت به الوقاحة أن هاجم القرآن نفسه وحاول أن يرد آياته إلى عصور سابقة عليه وحاول أن يفسرها وهو أبعد ما يكون عن دراسة أعماقها أو لغتها أو مفاهيمها أو أسباب نزولها .

والحرية هي كرامة الإنسان ولكن من قال أن الحرية هي تخطيم الأديان وامتهان كرامة الجماعة . والاعتداء على مقدسات الشعوب وما آمنوا به . فصلة الإنسان بربه صلة لا يعلمها إلا الإنسان نفسه وعالم الغيب والشهادة والاعتداء على هذا الحرم تخطيم للحرية نفسها ألا أن تكون الفتنة هي بغية المعتدى والوقية بين الأديان هي هدفه الذي يتغياها ويرصد حياته لبلوغه ومرة أخرى يفر الثور المذعوب كلبا أجربا يلوى ذيله بين فخديه ويتلمس مخبأ يرد عنه عاديات الهجوم .

ولكن هل من ينتهى ... هيهات ... إذا كان قد خاب فاله وحبط مسعاه مع الدين وجهها لوجه ومع فقهاء الدين بالإعلان فماله لا يحاول أن يهاجم شعراء العربية وكتابتها أجمعين ويجعل من ذكراهم عفنا وحيث يقول هذا رأى وما على من بأس أن أرفض كل هذا الشعر وكل الأدب وهذا حقه لا شك فى ذلك ولكن كشأنه يستر به باطلا حقيرا .

فإن الناقض حين يرفض شاعرا عملاقا أو كاتباً شاعرا يتعين عليه أن يذكر عيوب هذا الشاعر أو ذلك الكاتب وما الذى يدعو إلى رفضه ولماذا هو أكذوبة فى أدبنا وإلا كان الرفض وليد أغراض أخرى وخبيثات نفس مريضه ترمى برفض الشاعر أو الكاتب إلى رفض اللغة التى أكبرها هذا الشاعر أو ذلك الكاتب فأكبرته والذى أكرمه ورفعها فرفعته .

إن الأفذاذ من شعراء الأمانه وكتابه هم تاريخ أدبها وهم الرايات
الخفاقة التي تسافر عبر الأجيال تحمل الخلود لبلادهم على مر العصور
وتحمل أجيالهم على أعناق الزمن إلى سائر الأجيال .
وقد كان تشرشل الزعيم الإنجليزى على وعى عظيم بشأن الشعراء حين
قال لو لم يكن لبريطانيا فضل إلا أنها ولدت شكسبير لكان حسبها .
وما زال الفرنسيون يتبنون فخرا بكورنى وراسين وهيجو وبودلير
وبكتابها . من أمثال بلزاك ودوديه وأناتول فرانس وغيرهم وما زالت ألمانيا
ترفع علم جيتته وزفايج وعظماء شعرائها خفاقا على كل الأجيال وكذلك
تفعل كل الدول .

فما بال هذا الثور المذعوب يريد أن ينكس أعلام العالقة من شعرائنا
وكتابنا ويرفض أى شاعر أو كاتب لم يشهد هو ميلاده ولم يعلن هو
شاعريته ويمنحه هو صك الوجود إلا أن يكون متشيئا بتحطيم لغتنا فى وهم
منه كبير أنه يستطيع أن يحطم بها ديننا وقرآننا . ولكن ربنا قال : « إنا نحن
نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وهو طبعاً لا يؤمن بما قال ربنا . ولكن ألا
يؤمن بما تم فإ وما يرى من أن القرآن بقى ألفاً وأربعمائة سنة ونيف لم يتغير
منه حرف واحد ولكن على قلوب إقفاها وعلى البصائر منه مغاليقها .
فليمكر ما شاء له المكر فإننا نحن المؤمنون نعلم كل العلم إن الله خير الماكرين .

المحافظات وفلسفة الإعلان

خرج علينا العالم الغربي بنظرية أدبية ذات أسماء كثيرة منها العبث ومنها اللامعقول وكلها تؤدي إلى معنى واحد هو البعد كل البعد عن المنطق والعقل .

وسار في ركب النظرية كثير من شبابنا ووقع في أحاييلها جيل كثير بالغ في الإعجاب بها حتى لقد أنشأ بعضهم مجلة خاصة لهذا العبث لم تستطع أن تقيم في الحياة أكثر من عشرين أو ثلاثة ثم اختفت تماما . وأذكر أنني حاولت أن أفهم شيئا من هذه المجلة فاستعصى على الأمر . ولكنني كنت أشاهد كتاب هذا اللون يقرأون لبعضهم البعض ويتبادلون عدم الفهم مع تبادل الإعجاب .

وقد كتب في هذا الشكل أستاذنا توفيق الحكيم ونجيب محفوظ فجنحا إلى طريق آخر فقد استطاعا أن يجعلا المعنى الإجمالي لأعمالهما واضحا وإن كانت سطورهم غير واضحة . وبهذا وصلا إلى المعقول عن طريق اللامعقول . وقد أغراني هذا الذي صنعه فكتبت في هذا الشكل قصتين أو ثلاثا لا أذكر .

وطغى هذا الشكل طغيانا كبيرا على المسرح وكثرت الأعمال في ميدانه وتكاملت له مدرسة .

وكان لي فيه رأى : أنه يصلح أن يكون موضوعا لعمل أو اثنين أو ثلاثة ولكنه لا يستطيع أن يكون نظرية أدبية ثابتة تستمر على مدى أجيال . وأحسب أن ما توقعته قد حدث فعلا وماتت النظرية وعدل عنها

روادها بعد أن اختانت من حياة الشباب فترة غير قصيرة من حياتهم الأدبية .

ومحمل النظرية فيما أحسب أن هذه الحياة عبث وأن التعبير عن العبث لا يكون إلا بالعبث . وكما ترى تصلح هذه القالة أن تقال وتسمع مرة أو اثنتين أو ثلاثا . ولكنك إن ظللت تقولها في كل عمل عزف عنك الذوق الأدبي ورفضت نفوس المستقبلين أن تستجيب لك .

وهكذا ماتت النظرية حتى لم يعد أحد يسمع عنها شيئا .

ماتت النظرية في أدب القصة والرواية والمسرح واتجه روادها إلى الأعمال الأدبية المعقولة . بل لقد بالغ بعضهم ورضى أن يكتب الرواية البوليسية وهي أقل الروايات شأنا في ميزان الأدب وارتأى هذا البعض أن الرواية البوليسية أكثر قيمة بالنسبة إليه وللقارئ جميعا .

ماتت النظرية إذن قبل أن تعيش وانصرف عنها كتابها مادام الكتاب توقفوا عن كتابتها فالنتيجة الحتمية أنها أصبحت بلا قراء . فلا يمكن عقلا أن يكون هناك قراء لشيء ليس له كتاب . وربما كان هذا القول يعكس مثالا رائعا لأدب العبث وقد رأينا في ظل النظرية من يقرأ ورقا أبيض لا كتابة فيه ، أو ساعة بلا عقارب أو غير هذا مما لا يسيغه منطق أو عقل . ماتت النظرية في الفن الأدبي ولكني أراها ما تزال تعيش أقوى ما تكون الحياة في شتى مناحي حياتنا العامة .

وإلا فبربك أذكر لي سببا واحدا يجعلني أرى في تلك الإعلانات التي تنشرها المحافظات أمرا معقولا يسيغه منطق أو يرضى به عقل . ما هذا الذي تصنعه المحافظات ومن أى أموال ينفقون على تلك الإعلانات التي ينشرونها في الصحف اليومية .

وقد أسيغ أن تحتفل المحافظات بعيها القومي في حفل وسمريعيد إلى أبناء المحافظات ذكرى أمجادهم وأبنااء المحافظة من العظماء .
وقد يصلح أن تخلق المحافظة الأسباب للترفيه عن بنينا في وقده الحياة الثقيلة الخطى الشديدة الوطأة . فالنفوس في أيامنا هذه تحاصرنا أنواع من الهموم شتى وتحيط بها ألوان من الأسى لا يقف لها عدد أو تنهى بها حدود وحسبك ما نعانينه من ضيق الطريق عند الموارد واتساع الطرق وانفساحها عند المصارف والأنفاق . فلعل حفلا أن ينسى هما وإن كان من المؤكد إنه لن يرنحه .

فلسفة الحفلات إذن قد تجد لها عند العقل مبررا أو هي واجدة باليقين عند النفوس قبولا .

ولكن ما قصة هذه الإعلانات التي نراها في الجرائد اليومية . الذى أعرفه أن الإعلان يكون في أغلب الأمر صادرا من تاجر يريد أن يبيع بضاعته أو مالك لعقار أو منقول يريد أن يستبدل بالمال السائل ما يملكه من عقار .

ويكون الإعلان في حالات قليلة من مشتر يبحث عن شى لا يجده في مألوف حياته اليومية ويريد أن يعلن عن حاجته وليشترى هذا الذى يريد شراءه منقولا كان مبتغاه أو كان عقارا .

هذا هو ما أتصوره في الإعلانات . ولكننى - كما دق دائما أتشكك في كل معلومة أنا غير متخصص في شأنها . وأنا في باب الإعلان لا أعرف شيئا على الإطلاق فلنك صناعة أنا بعيد عنها كل البعد . ومن أجل هذا لم أطبع لنفسى كتابا على نفقتى الخاصة قط . وما أظن أننى فاعل ذلك أبدا . وقد جعلنى شكى فيما أعلمه عن الإعلان ألجأ إلى الأستاذ الأخ الصديق .

أبو السعود ابراهيم ، أمين مكتبة الأهرام أستعينه أن يرسل إلىّ تعريفا عن هذه المادة . وأنى ناقل إليك ما أرسل .

الإعلان وفلسفته . هو عملية اتصال تهدف إلى التأثير من بائع إلى مشتر حيث يفصح المعلن عن شخصيته ويتم الاتصال من خلال وسائل الاتصال العامة أو هو فن إغراء الأفراد على السلوك بطريقة معينة تؤدي إلى تمام الصفقات المنشورة بشأنها الإعلان .

هذا ما يعرف به الإعلان إذن . فأنا غير بعيد عن فلسفته . وما أحسب أحدا يتعد عن هذا المعنى فيما يدريه هو بخبرته عن الإعلان . إذن ما خطب هذه المحافظات المعلنه . وعن أى شئ تعلن . أنه من الطبيعي والمعقول أن تنهز المحلات التجارية فرصة عيد المحافظة لتعلن عن نفسها وتروج بضائعها . وإنما سؤالي . وعجبي عن الإعلان الرئيسى للمحافظة تصدر إعلانات التجار جميعا .

أليس هذا الإعلان يثبت أن نظرية العبث وغير المعقول ما زالت تسيطر على بعض الناس . إنه من المؤكد أن المحافظة لا تنوى أن تبيع نفسها لأى مشتر مهما يكن شأنه .

وهى باليقين ليست سلعة . بل هى باليقين أيضا لا مالك لها . فهى جزء من دولة ذات دستور وسلطات تنفيذية وتشريعية وقضائية ويسرى عليها ما يسرى على ربوع هذه الدولة فى حدودها الأربعة . فعن أى شئ تعلن المحافظة إذن . أترأها تريد أن تعرف الناس بها .

فتلك إذن مصيبة لا كاشف لها إلا الله القاهر فوق عباده . أم تراها -
وأنا لا أدري - تعلن عن نفسها لتعرف الناس باسم محافظها .
وإن كان الأمر كذلك - وما أحسبه إلا ذلك - فأى فائدة تعود على
السيد المحافظ أن يقرأ الناس اسمه في إعلان .
إن الناس تحب أن تقرأ أسماء الناس - حتى المحافظين - حين يقومون
بعمل يستحق أن يذكروا من أجله . ولا يحب الناس - وهم محقون - أن
يقرأوا أسماء الناس لا لشيء إلا لأنهم في وظيفة معينة .
فلنأنا إذا ما ذكرنا إسماً دون أن نذكر له فعلاً معيناً نكون بهذا قد كتبنا
جملة غير مفيدة نقش فيها المبتدأ دون أن يذكر الخبر . ولا يمكن أن تستقيم
جملة بغير مبتدأ وخبر . فأى معنى يمكن أن يصل إلى عقولنا إن قلنا « نعمان
مثلاً ولم نقل ماذا فعل نعمان هذا لنذكره . واكتب نعمان ما شاء لك هواءك
من عدد المرات فإنك مهما تكتب تظل غير مفهوم عند من تخاطبهم وكأنك
لم تقل شيئاً إلا أنك زدتنا بنعمان جهالة .
وقد أرى في هذا الإعلان أن المحافظة يرفع إلى السيد الرئيس تهنئته
وإجلاله ودعائه .

وغريب أن يكون المحافظ - هو بدرجة وزير وقد لقي الرئيس عدة
مرات - على غير علم واف بأخلاق رئيس الجمهورية .
أبعد ما يكون حسنى مبارك عن الرغبة في التاليه . وأكثر الناس عزوفاً
هو عن تحية تقدم بغير داع أو تهنئة تسعى إليه بلا اسبة .
متواضع هو كل التواضع - إنسان عميق الشعور بالإنسانية . أزهد ما
يكون في البريق وفي المظهر - أعرف الناس أن منصبه جهد وعمل

- ٨٦ -

ومستولية ومشقة . وليس منصبه كم يتخذه آخرون - وسيلة لدعاية أو استجلابا للمديح أو طريقا إلى تكبر .

يعرف رئيس الجمهورية الدافع خلف كل هتاف فردى . والباعث الذى يتخفى وراءه أى تبجيل . بل ويعلم أن بعض الناس يطلبون أن يقابلوه بمجرد أن يقولوا فى مجالسهم أنهم قابلوا الرئيس . ويعرف أن هناك أثرياء وذوى ثراء باذخ أصابوا من المال ما شاءوا ولم يبق لهم إلا أن يتخذوا سمى أصحاب النفوذ والكلمة المسموعة فهم يخسون - وهم محقون - أن المال وحده لا يصنع للفارغين قيمة ويعرف الرئيس أن كثيرا من هؤلاء يحاول أن يلقاه ليقنع نفسه أنه بلغ من الحياة تلك القيمة التى يفقدها فى ذاته فيفقددها .

فقيم إذن يحاول المحافظ أن يقدم التحية للرئيس . علم الله أن الرئيس يرى أن إنتاج وحدة وحدة من سلعة مصرية أحب إليه من ألف تحية لا معنى لها ولو أن المحافظ أنفق الوقت الذى بذله فى تدييع التحية والمال الذى أنفقه من الخزانة العامة يعود على إقليمه الذى هو جزء من مصر بشئ من الخير لكان هذا أجدى له وأنفع . ولكان فعله حبيبا إلى رئيس الجمهورية فى حين يكره الرئيس أن يتخذ المحافظ من اسمه وسيلة لإعلان عن لا شئ . فإن الرئيس حسنى مبارك يعمل نهاره وليله ليحطم اللافتات المرفوعة على الفراغ ليحل مكانها عمل وجهه وإتقان وجدية وصدق وشرف والله على ما أقول شهيد .

اعزك الله يا عزة

١٠- في الأخبار تحت عنوان طفلة تنقذ ثلاثين مواطنا من الموت الخبر التالى أسوقه كما ورد « كتب - محمد رجب - أنقذت طفلة في الثامنة من عمرها ثلاثين مواطنا ومواطنة من الموت .. دخلت الطفلة عزة محفوظ مكتب العقيد أمين بهجت مأمور قسم الجيزة وأبلغته بأن المنزل المجاور لمنزلها خلف مبنى القسم على وشك الانهيار . وأنها سمعت والداها ووالدتها يتحدثان عن سماع أصوات غريبة تنبعث من جدرانها التى تهتز وقالت أن والديها قررا عدم إبلاغ الشرطة خوفا من سكان المنزل .. انتقل المأمور والضابط للمكان وحيثما تأكدا من صدق الطفلة .. قررا إخلاء المنزل فورا من سكانه .. وبعد دقائق من الإخلاء إنهار المنزل وبدأ التحقيق .

كانت الطفلة ترتجف وهى تدخل من باب القسم .. لاحظ المأمور أن نظراتها يملؤها الفزع .. إنجه إليها .. سألها عما تبحث .. قالت له أن صديقتها الطفلة تسكن بهذا المنزل الذى سمعت من والديها أنه سينهار بين لحظة وأخرى وأنها تخش على صديقتها من الموت وتخشى أن يعلم والداها بخسورها للقسم .. تردد المأمور فى تصديق الطفلة وأمام إلحاحها وبكائها المستمر اصططحبها ومعه المقدمان ماجد الباز وعمر الفرماوى رئيس المباحث .. وتبين أن المنزل متصدع الجدران ومائل قليلا فقرروا إخلاءه فورا .. وبعد دقائق انهار المنزل وتبين من المعاينة المبدئية أن أسقف المنزل من خشب النخيل .

وإلى هنا ينتهى الخبر تقريبا .. وأنب ياعزة لا تدرين أية سعادة غامرة أدخلتها إلى قلوبنا فقد رأيت فيك أملا من بعد يأس قاتم خيم على حياتنا .. فأنت يابنية استطعت بعملك الذى صنعتة عن فطرة أن تصبى إبتسامة مشرقة على قوم طال بهم الزمن وهى نخس المرارة والأسى .
 إن عزة لم تلتق بالشرطة من قبل .. وواضح من الخبر أنها كانت خائفة هالعة مرتعشة من الإقدام على هذه المخاطرة التى لا تدرى إلى أى مصير تقودها .

زادها خوفا وهلعا ذلك الحديث البعيد كل البعد عن الانتماء الإنسانى والذى بلغ مسامعها من أمها وأبيها .

وإن كان الخبر لم يأت من الحديث إلا بعجالة سريعة إلا أنه من المؤكد أن الحديث كان مستفيضاً متطاولا . وماله لا يكون .. زوجان فى بيتها والأحداث التى يمكن أن تكون مادة تسلية قليلة نادرة وهامى ذى فرصة متاحة للحديث الوافر . تكلموا عن الناس الذين يقطنون بالمنزل والشروخ التى داهمت المنزل ومتى داهمته وكيف سكتوا عنها والوالدان يرفضان أن يبلغا عن المنزل المتهالك ويطمئنا ضميرهما أنها إنما يصنعان ذلك حتى لا يغضبا سكان المنزل من أصدقائهما .. إذن فالأبوان الكريمان يخافان ان يغضبا قوما ولا يخافان أن يقتلاهم أجمعين . ولا شك أن الأبوين فى حديثها تخوفا أن يذهبا إلى القسم حتى لا يشغلا وقتها ويضيعا يوما بأكمله فى الإبلاغ ومصاحبة الشرطة إلى المنزل .

إن الأبوين من ذلك الجيل الذى نشأ فى الأيام الداكنة من تاريخ مصر والتى جعلت الناس يشعرون أن مصر غريبة عن المصريين وهم عنها غرباء يوم قال الحاكم إن شأنى أنا وشأنكم أن تقبلوا رشوقى بالخبز

الرخيص والتعليم المجانى فى جميع مراحلہ وأن تہملوا فى مصانعکم ووظائفکم ما طاب لکم الإهمال ولن یمسکم أحد بسوء بل ولکم أيضا أن تكون نسبة الجهلاء من فلاحين وعمال خمسين فى المائة ویشتروا فى التشريع للبلاد وما الناس وقد کان التشريع يصدر من الحاکم المنفرد ويمر بالمجلس النيابى لإقراره وليس لمناقشته .

جیل ساومه الحاکم واشترى منه حقوق المواطن الإنسان ودفع له الفئ تخريبا للوطن وتدميرا لكرامة مصر واقتصادها .

إنه جیل تعود ألا يكون صاحب رأى فى أى شىء يخرج عن نوع طعامه فى بيته وفى بيته فقط . جیل بعيد كل البعد عن الحياه العامة وما يضطرب فيها وما یمس شئون الناس من ناسهم الذين یحبون من ماء نیلهم ویأكلون من أرض مصرهم شاه زمنا .

والقاطنون فى البيت ماذا نحن قائلون لهم أنلومهم أنهم لم یبلغوا عن الحال الذى صار إليه بیتهم من السهل أن نلوم ولیکن أترانا كنا نصنع غیر ما صنعوا . أسرات بأكملها يضمها بیت متہالك إن تركوه فهم نہب للتشريد والضیاع فى تيه العالم أجمع .. إن سكان هذه البيوت جميعا أحياء وأمواتا ضحايا القانون الذى أصدره الطاغية فى الستينات لتخريب العلاقة بین ملاك البيوت وسكانها وجعل الملاك يتوقفون منذ صدوره عن البناء توقفا تاما وها هى ذى النتيجة اليوم .. مقاتل جماعية لسكان البيوت المتہالكة أو تشريد لمن تركوا المنازل المتصدعة وضیاع كامل للشباب الذى يريد أن يبدأ حياته ويكون أسرة .. هذا الضیاع الذى أدى إلى وحشية بعض الأبناء لتخلص لهم بيوت والديهم .

أما عزة ابنة الأمل وبنت الأرض الحرة والهواء النقي فقد غالبت هذا وذهبت وحدها إلى القسم ترتجف ولكنها تغلبت على خوفها لتتصدقها في البيت المجاور فأنقذت معها سكان البيت أجمعين . أنت ياء تشعرين أن الصداقة تستحق ما تعرضت له . من خوف وحرص وأذ ياعزة تشعرين أنك تنتمين إلى الناس حولك الذين هم وطنك . وأذ ياعزة ضربت المثل الرفيع لكل المصريين فلو أن الوزراء اتخذوا قراراً بنفس الجرأة التي اتخذت بها قرارك لصلح حال الإقتصاد المصري واستقام المعوج من الأمر . فنحن الدولة الوحيدة في العالم التي تعمر أمراضها وتعرف دواءها ولكنها لا تحاول أن تستخدم الدواء لتقضي المرض . مازلنا نصر على مجانية التعليم الوهمية ونحن نعرف الخراب الحار بمصر وبالتعليم من هذا الداء ، ومازلنا نصر أن تكون نسبة المعلم والفلاحين خمسين في المائة ونحن نعلم أننا بهذا نخرب التشريع المصم والكرامة المصرية بقانون لا مثيل له في العالم أجمع ونحن نصر أن يمد الدعم الأغنياء مهما يتفاقم حجم غناهم . ونحن مصرون ألا يعمل العا ثم يظل في عمله .

وإذا أعضاء مجلس الشعب ياعزة أدركوا أنهم مسئولون عن جميعنا وليس عن ناخبيهم وأقاربهم فقط ولو أنهم فعلوا مثلك فقد الصالح العالم على الصالح الخاص لكان حال مصر غير هذا الحال . ولو الموظفين أدركوا أنهم ينبغي أن يتقنوا عملهم مهما يكن أجرهم ضئيلاً ؛ القيام بالواجب في ذاته قيمة عليا أدركتها أنت ياعزة لأصبح وجهه مـ جديرا بتاريخها العريض .

- ٩١ -

ولو أن كل فرد في مصر ياعزة أحس أنه مسئول عن أخيه كما أحسست
أنت أنك مسئولة عن صديقتك لاستطعنا ياعزة أن نعلو فوق المحن ونسمو
فوق الأزمات وليغير الله ما بنا لأننا غيرنا ما بأنفسنا .
وبعد ياعزة ربما كنت فيما أقول حالما في وادى الآمال لكنك أنت
يابنيتي قد فتحت لي الباب إلى هذا الوادى ومادامت مصر قد أنبتك فمالى
لا أرجو أن يكون جيلك كله مثلك . فإن صح هذا الرجاء فإن لنا نحن
المتفائلين أن نتوقع لجيلك هذا أن تكون أيامه كلها إشراقا ومالى يابنيتي ألا
أرجو فإن لكل ليل صباحا وقد كنت أنت تبشير هذا الصباح .

إلى هؤلاء وحسبى هم

أصدر وزير الداخلية بيانا أن هناك عناصر شيوعية تعمل في الخفاء وقد يبدو هذا غريبا وهو في نفس الوقت غير عجيب .. إما أنه يبدو غريبا فذلك لأن قراء هذا النبا سيتساءلون فيم يعمل الشيوعيون في الخفاء ولهم جريدة تصدر في مصر تحمل كل آرائهم وتحمل من أفكارهم ما يصدم الشعور العام ويثير النفوس الشريفة وهم لا يكفون بحريديتهم عن تمزيق جروح الناس وتأليبهم على النظام العام وهم يقولون ما يقولون في علن وفي غير موارد ولا غموض .. ففيم إذن حاجتهم أن يعملوا خفية .

إلى هذا قد يذهب من لا يعرف تاريخهم وأخلاقهم وتركيبه مذهبهم وتكوين نفوسهم أما غير هؤلاء وأنا منهم فزرى أن عملهم السرى لا غربة فيه فكما لا يعيش السمك إلا في الماء لا يعيش الشيوعى إلا تحت الأرض وأنى اعتذر للسمك أن شبهتهم به .. فإن خياشيم الشيوعى لا تستطيع أن تشم من الهواء إلا فاسده .. فهناك تحت الأرض في سراديب العفن الذى يعيشون فيه .. يدبرون المؤامرات ويختلقون الشائعات . ويبنكرون التهم على الشرفاء ويمزقون السمعة الواضحة النقاء . ويعلنون فيما بينهم سخيمنتهم على كل من يتقى الله والضمير فيما يقول أو يفعل أو يتغيا .

وهناك في سراديب العفن يبيتون أمرهم بالليل الدائم الذى يعيشون فيه على الإيمان بالله ، يحاولون أن يزعموا رواسخه السماء في نفوس المؤمنين في هذا الخفاء تدبر الكوارث التى لا يستطيعون أن يعلنوا عنها في الصحيفة المعلنة على الناس . وإنما تعمل الصحيفة على تهيئة رأى العام لما يدبره

المتآمرون المستخفون في غياهب الأرض من مؤامرات ضد الدين والوطن والشرف . والنقاء والحرية .

فأرض الشيوعية لا تكون إلا في مستنقع العذاب والانسحاق للجماهير الناس . ولا ينمو نباتها إلا بدماء البشر وعصير كراماتهم .
 ورجال الأمن هم المسئولون عن أمر هؤلاء ونحمد الله أن وزير الأمن عندنا يقط على علم بما يفعلون ونحمد الله أن عينيه قد اخترقتا عليهم سراديبهم وكشفت عنهم خفاءهم .

ولكننا نحن الشعب نجد الأجواء من حولنا تفوح منها في كثير من الأحيان ربح الشيوعية .. وإن كان هؤلاء المتآمرون يدبرون أمرهم تحت الأرض فإن هناك قوما آخرين يتسترون عن العلن بالتنكر في أزياء بريئة يخفون تحتها أسلحة فاتكة تنفذ إلى العلن في حياتنا بجث أسود وربما كان الذين تحت الأرض هم الذين يرسمون الأدوار ويحددون الأعمال لمن هم على سطح الأرض فإن أولئك يتولون من أمورنا نواحي هي غاية في الخطورة .. وهم يثون الدعاية الشيوعية مستخفية في كلام ظاهره برىء ولكن الحقيقة فيه تحمل السم الزعاف .. وقد يتنكر هذا الكلام في زى حديث بالراديو أو التلفزيون وقد يتخذ وجها آخر في تمثيلية أو مسرحية يتنبه للشيوعية فيها بعض الناس ويسرى السم في نفوس البعض الآخرين دون أن يدركوا أنهم تجرعوه وسرى في دماهم ففي أجهزة الإعلام فئة ليست قليلة من الشيوعيين .. وفساد الفرد منهم يكفي لفساد الآلاف لأنهم متصلون بالجماهير ولهم في الحديث إليهم تمرس ودربة .. ولهم في دس السم الشيوعي بأعمالهم وسائل وطرق .. والشيوعيون أيضا منتشرين في الوسائل الأخرى لمخاطبة الجماهير وقد يتنكر بعض منهم بكثرة الحديث عن الإيمان أو

باصدار كتب عناوينها الإيمان وموضوعها الإلحاد وهؤلاء يتخذون من وظائفهم الرسمية درعا يدارون بها عن أنفسهم المظنة لأن المتعاملين معهم يسترون عليهم ليلغوا همهم فهم الذى يسعون إليه من نشر أو إذاعة أو تليفزيون .. وهناك أساتذة فى الجامعات يمسكون برقاب الطلبة العزل الذين لا يملكون سلاحا أمام السلاح الفاتك الخطير الذى يشهره الأستاذ الشيوعى عليهم من إسقاط فى الامتحان وإضاعة للمستقبل وتدمير للحياة .. وهؤلاء الأساتذة الشيوعيون لهم جرأة على الحق لا تتأنى إلا لمن ألد بالله والوطن. وبالقيم الرفيعة وبالخلق الأسمى وتدلى إلى حضيض لا يبلغه إلا من كان مثلهم شيوعيا .

وبعد فإن عملى الحياة أن أنبه الناس إلى هذا الوباء فإن كانت كلماتى هذه ستستطيع أن تجد سبيلها إلى الناس فيصبحوا على حذر مما يدسه الإعلاميون الشيوعيون من سم لهم فما حيلتى مع هؤلاء الطلبة المغلوبين على أمرهم والأساتذة يسدون عليهم منافذ الحياة .

احسب أنه ليس هناك من سبيل إلى هؤلاء الأساتذة إلا أن يكون زملاؤهم من المؤمنين بالله وبالوطن على بينه بأمرهم ..

وإن تكون مجالس الجامعات على وعى بما يصنعه هؤلاء الشواذ فيقمعوا جبروتهم ويقلعوا أظفارهم السفاكة . ويتخذوا من بطشهم الرهيب .

ولقد أعلم أن هناك من يتساءل عن هذا الحديث الذى نسوقه عن الشيوعية فإن كان للمؤمنين فهم ليسوا فى حاجة آليه فلن يستطيع الكافرون مها يكن لهم من أساليب أن يزحزحوا إيمانهم قيد شعرة .. وإن كان الحديث للشيوعيين فهم مرتبطون بمذهبهم ارتباط حياة مادية تعود عليهم

- ٩٥ -

بالبحبوحة فى العيش والرفاهية. فى الدنيا التى اشتروها بأخترتهم وبوطنهم
وبكرامتهم وبضمايرهم .. فما هم إذن بعائدين إلى الطريق الحق مهما يكن
الحق واضحا أمامهم ومهما تكن الحجة التى تواجههم منى أو من غيرى
قوية لا رد لها ولا جواب عليها ..

والحق أننى أكتب هذا الذى أكتبه لشباب برىء لم يختر طريقه بعد
وتتجاذبه نوازع متعارضة من أضواء الكلمات البراقة التى يلفقها عليهم
الشيوعيون .. من تقديمه ورفض للرجعية وخروج عن مألوف الناس من
دين ووطنية وخلق ونوازع أخرى مما استقر عليه المجتمع الشريف من قيم
دينية وخلقية ووطنية ..

إلى هؤلاء أسوق الحديث وحسبى هم ..

لا عجب

تنازعنى وأنا أمسك القلم مذهبان أحدهما يغربنى بالكتابة والآخر يقصبنى عنها . ولكل من المذهبين منطقته ورأيه وحجته فأما الأول فيرى أننى كتبت عن الأستاذ هيكل وهو قائم حتى فلا داعى هناك أن أكتب عنه وقد انتحر بشهوة الشهرة والتكبر وأصبح قتيلا عدما لا وجود له . وأما الآخر فيرى أن هناك أشياء تحتاج إلى تذكير الناس بها حتى لا يعجبوا مما بلغه الأستاذ هيكل وأمثاله من حضيض . فقد كان طريقهم الذى اختاره لأنفسهم مؤديا بطبيعته إلى هذه النهاية التى لا نهاية غيرها . فهو طريق لا يتفرع ولا يزدوج وإنما هو طريق واحد إلى نهاية واحدة لا نهاية غيرها واستقر بى الأمر إلى ما ترى ورحت أتساءل ولم يطل بى التساؤل . كيف وقع الأستاذ هيكل فى هذا المأزق . صحيح أن الشخصية العامة لا ينطبق عليها ما ينطبق على سائر الناس من وجوب ستر العيوب على الموتى . فلا نذكر إلا محاسنهم . وصحيح أن التاريخ مزق الأستار على العظماء فذكر كل ما يدور فى حياتهم الخاصة من خير ومن شر . فلم يترك من خفاياهم خافية إلا ذكرها ولكن المؤرخين حين صنعوا ذلك لم يكونوا معاصرين لهؤلاء العظماء ولم يكتب أحد منهم عن هؤلاء الأشخاص فى الفترة المتصلة بحياتهم إلا نقدا أو مدحا لأعمالهم العامة أما التنقيب فى شؤونهم فلم يأت إلا بعد فترة طويلة من حياتهم كأن الذين عاصروهم قد ماتوا أثناءها وكان أبناؤهم قد أصبحوا أيضا فى ذمة التاريخ . أما فى الزمن المعاصر لهؤلاء

العظماء فما أحسب أن أحدا صنع هذا دون أن يجد من الرأى العام استنكارا ورفضاً واحتقارا . وأذكر بعد وفاة الرئيس الأسبق أن تناوله مصرى فى الكويت بصورة بشعة وكتب عن أهله وذويه بقلم عنيف وكانت الحكومة الكويتية لا تحب الرئيس الأسبق ولكنها رفضت هذا الذى كتب وأمرت المصرى أن يرحل عنها فى مدى أربع وعشرين ساعة من ظهور مقالته .

ومهما يكن رأينا فى الأستاذ هيكل فإننا لا نستطيع أن نجحد أنه امام علامة فى فن النفاق . خبير لا يشق له غبار فى ميدان الملق . ويكفيه ما ذكره هو فى كتابه عن زعيمه حين كلفه أن يبحث له أمرا وينهى إليه رأيه فيه فلم يجد ما يقوله لرعيمة إلا جملة الخالدة فى سجل الهوان : إنك أنت الزعيم الملهم فاستلهم وحيك واضنع ما يشير عليك به .

فكيف أخفق هذا الإخفاق هذه المرة وسقط هذا السقوط . وفتح على نفسه وعلى زعيمه بابا لو ولجنا منه إليهما لركمت منا الأنوف ولكن ما كان لنا أن ندخل بابا مثل هذا عفة منا وبعدا عن المهاوى التى سار إليها الأستاذ هيكل بطبيعة موالية وسليقة غير مبصرة ولكن حقيرة .

بعد فالسادات راية خفاقة فى سماء مصر والعالم العربى بل والعالم أجمع إلى الأبد الآبدين . فقد صنع الحرب وهو من هيا لجيش مصر الفرصة العبقريّة التى يستردوا كرامتهم فيها التى أهدرها الحكم السابق على حكم السادات فى رمال سيناء وعلى هضاب التاريخ . وهو الذى أفاد من هذا النصر الفريد فى حياة العرب الحديثة فشق الخطوب والأهوال إلى سيناء وكانت حياته هى الثمن وكذلك أفذاذ التاريخ يقدمون حياتهم رخيصة هينة فى سبيل وطنهم وشعوبهم والسادات من قبل نصره الحربى انتصر على نفسه (نهار بلا مضاجع - م ٤)

فلم يقبل أن يظل ممسكا - زواجا للناس يصرفها كيف يشاء وكأنه شيطان مسلط على بنى قومه فهو الذى أطلق الحريات فى ١٥ مايو وأصبح المصرى الذى كان قبل السادات مرعبا على حياته وعرضه وماله وكرامته . مطمئنا إلى الحياة ، أمن سر به ، وهذا مضطربه ، وقرئنا خوفه . يتطلع إلى الغد فى أمل وينام ليله فى أمان ويسعى فى مناكها فى طمأنينه ، فى وجهه إشراق ، وعلى فمه إبتسامه ، وفى قلبه إيمان . وبهذا انتصر الجيش وقد تعلق بأسباب السماء وأصبح الجنود البواسل الكرام يحسون أنهم عن أوطانهم يدافعون وليس عن مطاعم رئيسهم وآماله أن يصبح زعيما للعالم .. أى عالم .. أفريقيا كان هذا العالم أو عربيا .

وقد كان هيكل هو سوط سيده وكان مكبر الصوت الذى يعلن عقوباته البعيدة عن كل عدل أو منطق والبعيدة طبعاً عن أى رحمة أو إنسانية ، فالرحمة والإنسانية والحببة مراتب فوق مرتبة العدل أو المنطق . وكان هيكل هو اليأس القاتل وجيشنا الباسل يعد نفسه لمعركة العصر الحديث حتى لقد أغرت كتاباته بعض الكتاب منا الذين كانوا يظنون أنه مطلع على بواطن الأمور أن يكتبوا بيانهم يقولون للرئيس السادات مادامت الحرب بعيدة المنال فاعطنا حريتنا ، ولم نكن نعلم وأنى لنا أن نعلم أن الحرب قاب قوسين أو أدنى والكتاب الذى ظللنا السنوات الطوال نبحت عن مصائرنا فى ضباب صراحته قد أعلن أن دون الحرب أهوال لا يقوى عليها إلا الجن والشياطين ونسى أن الله الذى خلق الجن العاصى خلق الجن الصالح المؤمن فكان جيشنا منهم وصاح الله أكبر وكان النصر الذى لم نكن نحن أصحاب البيان نتوقعه فحين شهدناه لم نكابر ولم نجادل فى

- ٩٩ -

الحق الذى لا شك فيه واعترفنا جميعا بعظمة السادات - لم يتخلف منا
أحد ولا حتى المافون والمخدور الغارق فى خمره ومورفينه .
فالأستاذ هيكمل كان دائما الزغرودة والأغنية السعيدة الهائنه
والأهزوجة الفرحانة الطروب فى أحزاننا وأهوالنا وآلامنا ومآمتنا .
وكان اليوم المشؤوم والغراب الناعق وزعيم النأحات فى أفراحنا الحقيقية
التي تتمثل فى عودة حريتنا وفى انتصار جيشنا وفى إفشاء السلام على
ربوعنا وعودة سيناء إلى أرضنا وهى ملتقى كلام الله بنبيه موسى ومراح
يوسف الصديق ومأمن مريم وعيسى ومسرى سيدنا محمد ﷺ إلى المسجد
الأقصى . وهى من بعد ومن قبل التاريخ أرض مصر . أترى أن مثل هذا
يمكن أن يثير العجب فيما يفعل أو يقول هيات .

ويل للصغار من الصغار

كم أرثي للصغار حين يتولون مناصب الكبار أو كبار المناصب فلم يمسون في حال تدعو إلى البكاء والإشفاق والأسى . فلا هم أصبه بمناصبهم كباراً ولا هم ظلوا فيما كانوا يؤدونه يتخفى صغارهم في ظاهجهل بهم وبعدهم عن أماكن الصدارة هناك حيث تتضح معالمهم جد ويضحى صغارهم معلنا على ملأ الناس لا تتوارى منه خافيه .. وصلوا إلى أماكنهم بكل ما تأباه الكرامة . وما يتعفف أصحاب الكبرياء عن إتيانه ، نافقوا فأوغلوا في النفاق ، وجعلوا رؤوسهم مواللعال وقدموا من الخدمات ما يتأبى عن تقديمه كل من يملك بقية من أو مسكه من إنسانية الإنسان .

وحين يصلون إلى ماسعوا إليه تبدأ بهم وبمن يعاونهم الكارثة الكبر فهم يشعرون أن الكرسي الذي يجلسون إليه كله حراب هي حراب - إذا اغتصب تثبت من تلقاء نفسها بسر لا يدريه إلا الحق سبحانه وتفه هو العدل وهو الكبرياء وهو القيوم على عباده لا يبدل القول ء وماهو بظلام للعبيد .

وحين تثبت هذه الحراب يصبح الجالس على الكرسي موضع شه من معاونيه لا موضع احترام . وتصبح صورته مليئة ببثور الجروح المتخذ عن الكرامة التي انتزعها من سحنته وماء الحياء الذي انضبته من وجهه فينظر إليه العاملون معه نظرة احتقار خترق رأسه وإن صاحبها حديث مديح أو فيه مهادة . وقد يستطيع الناس الذين لا يخترفون النفاق

يتحكموا في ألفاظهم ولكنهم لا يستطيعون أن يتحكموا في الشعاع الصادر من عيونهم . وكثيرا ما يكون هذا الشعاع سليطا جارحا عنيفا يجعل المديح الذى ينطق به صاحبه شرا من الدم الصريح وأفدح وقعا من السب الجهير .

مساكين هؤلاء الذين يجلسون إلى كراسى بلغوها بهذا النفاق . فهم لا يطالعون هذا الجزء وتلك السخرية وذلك الاحتقار من سائر الناس فحسب . والالهان الأمر بعض الهون ولكنهم يطالعون هذا الجزء وتلك السخرية . وذلك الاحتقار من أنفسهم يواجهونها فى صباح ومساء وفى يقظة ونوم وفى إفاقة وغيبوبة .. فإذا استطاعوا أن يتواروا عن الناس تخمين بكرسيهم فكيف لهم أن يتواروا عن أنفسهم وبماذا يحمون أنفسهم من أنفسهم .

مساكين أولئك الذى يجلسون إلى كراسى بلغوها بهذا النفاق ، فإن قراراتهم دائما مضطربة مثل اضطراب جلستهم على كراسيهم فالكرسى واسع كبير والجالس عليه ضئيل هزيل فهو فيه موجود بلا وجود ، كائن غير كائن ، مقيم ونازح ، حاضر وغائب تائه فى الكرسي مضيع فى منصبه .

وإن كان قراره يمس أمورا جساما فويل لهذه الأمور من قراره ، فهو لا ينظر فى شأنها بعين الباحث عن المصلحة العامة ولا يستعين بأهل الرأى أو العلم ، أو الخبرة فهو لأنه صغير يعتقد أن الرأى الأمثل هو رأيه والعلم الأوفى هو علمه والخبرة فى جميع مناحى الحياة جمعت بعضها بعضا لتتركز فى كيانه . وهو يعتقد - ويثس ما يعتقد - أن ما فاتته من المدرسة والدراسة والخبرة يعوضه هو بالإتهام والقهوة أليس قد استطاع بهما أن

- ١٠٢ -

يصل إلى كرسیه حين نكص صاحب الرأى وصاحب العلم وصاحب الخبرة .

مساكين أولئك الذين يجلسون على كراسى بلغوها بهذا النفاق فلنهم
يدأبون فى كراسيهم على مهاجمة الكبار الذين لا بد من وجودهم فى كل
منحى من مناحى الحياة ، وإنه لأمر محتوم أن يكون من بين العاملين مع
الصغار كبار توافروا على عملهم أو فهم ونأوا بذواتهم عن مواطن الأحذية
وعن مواقع النفاق ، والصغير مهما يكن مغيب العقل إلا أنه يعرف ما لدى
الكبير من موهبة ومن علم ومن تمرس . فهو ينشرب فيه أسنانه الحادة يحاول
جهده أن يمزقه ولكن المسكين لا يعلم أن الكبير يظل كبيراً وأن لحم الكبير
مُر وأن قناته لا تنكسر وأن أسنان الصغير مهما يكن ذا كرسى وسلطان لا بد
أن تتساقط جميعاً جذاذاً مسحوقة مطحونة دون أن تصيب من الكبير
جرحاً أو تخدش منه إصبعاً .

مساكين أولئك الذين يجلسون إلى كراسى بلغوها بالنفاق .. فهم
يحاولون أن يرضوا كل الصغار ، ولكن الصغير لا يرضى ومحاولة الإرضاء
على حساب الحق تغضب الجميع ولا ترضى أحداً فهم بمحاولة الإرضاء
هذه يثيرون على أنفسهم أحقاد الصغار أمثالهم ، ولا يحقد الصغار على
الصغار نيران لاهبة ، وضراوة سفاحة ، وشرسة ذات سعار وضرام ، فإذا
تسامى الكبار أن ينالوا من الصغار بالسنتهم أو بأفعالهم فإن الصغار لا
يتسامون عن الصغار ولا عن الصغائر . وهكذا يسقط الصغير عن كرسیه
بالصغار كما بلغه بالنفاق وهو شر أنواع الصغار .

مساكين أولئك الذين يجلسون إلى كراسى بلغوها بالنفاق ، فإن الذى
يرخص كلمته مدهاناً متذللاً منافقاً ، يرخص ضميره لصاً وسارقاً ومختلساً

وإذا كان رب البيت بالدِّف ضارباً فشيمة المهازِيل من أهل بيته كلهم الرقص ، فهو حين يختلس يصدر قرار إدارياً بإباحة السرقة لمن يريد أن يسرق . فإن لم يساعد اللص أن يلص مال المرفق الذى يعمل به فهو - بلا شك - يستر عليه ، وإذا أرخى الرئيس على المرووس الاغضاء فسد الأمر وصار فوضى وأصبحت المرافق مباءات عفن وأصبح مال المجموع نهبا لأفراد لا يقف بهم الطمع عند غاية ولا ينتهى بهم الجشع إلى أمد . ويل للدولة يتولى فيها الصغار مناصب الكبار أو كبار المناصب فإن الفساد يفشو كنار فى هشيم ولا ينتجو منه إلا صاحب العزم الشديد والإيمان العميق بالله وبالقِيم وبالمثل الرفيعة وكم هو عسير أن يعصم الشريف نفسه إذا تكالبت حوله زمر المسعورين النهابين الآكلين السحت والعابثين بكل ما هو تقي رفيع فى الحياة أنهم لن يحجموا الشريف بينهم فهم قاتلوه أو هم على أحسن تقدير مبعدوه عن مسبتهم ومراح نهيم ومسارح عبهم . ومادام الجالس فى الكرسي الكبير صغيراً فكل شيء إذن مباح . وبعد فقد أوشك قولى على نهاية وما أحب أن أضع القلم وأترك من يقرأ هذا الكلام فى ظلام يائس وفى عتمة أسيفه مخزنة ، فإن رئيس الدولة اليوم رجل كبير ورجل شريف وفى وجوده ضياء أمل لأنه هو الرأس فى هذا البلد وحين يصلح الرأس يمكن أن تنصلح الأعضاء جميعاً ، ولكن الشر لا ينحسم فى يوم وليلة ، والهدم يقع فى اللحظة والبناء يقوم فى وقت مديد يصل إلى سنوات .

فألنا لا ندعو له وهو بالدعاء خَلِيق أن يسدد الله خطاه ويضئ له طريق النزاهة الذى اختاره لنفسه والذى لاشك أنه لا يرضى بغيره لمن يعملون معه ويعينونه على مسئوليته وإنها لمسئولية فادحة لا يطيق حملها إلا المؤمنون .

كرامة ومال

هو رجل واسع الثراء عميق الجهل يقال له في منطقته فلان بك .
 شاءت الظروف أن يكون مدينا لنا نتيجة محاسبة - لا اقتراض بطبيعة
 الحال - بمبلغ مائتي جنيه ، وكان المبلغ مستحقا لي ولأخوتي معي فكان
 من المحتم أن أطلب به . وقد فعلت فراح يراوغ ويماطل ويسوف ويؤجل
 حتى اضطررت آخر الأمر أن أقول له أنني سأقدم الكميالة للمحكمة وكنت
 بحاميا في هذه الفترة من الزمان وفهم البك بحكم ممارسته للحياة معنى أن
 يقدم محام كميالة للمحكمة . فإن الكميالة هي التي سترافع أما مرافعة
 المحامي فتكون بالصمت . وسارع البك قادما إلى وقد أيقن ألا سبيل له
 من التهرب الكامل وبقي أن يماحك في المبلغ نفسه وأخذتني الدهشة فثروة
 الرجل باذخة والمبلغ بالنسبة إليه على الأقل ضئيل لا يحتاج إلى هذه
 المماحكة فاضطررت آخر الأمر إلى أقول له - يا فلان بك إن المال قد صنع
 لنحفظ به كرامتنا بادی ذی بدء . وإذا بالرجل يقول في بساطة وفي سليقة
 مواتية ودون أى تردد - والله يا فلان إن مسألة الكرامة دى متلزمينش ...
 مش تحت خبر ملهاش لزوم عندى نهائى . الكرامة دى متعبة وأنا مش
 ناقص تعب . ولست أدري مدى الدهول الذى أصابني إلا أنني واثق أنه
 كان ذهولا مفجعا فقد وجدتي دون أن أحس أمزق الكميالة وألقي بها في
 وجهه وأقول - وأنا متلزمينش فلوس من واحد زيك حتى ولو كانت حتى
 وحق أخواتي وصاح الرجل - الله يخليك .. الله يطول عمرك ..

وقام وخرج وهو فى غاية السعادة أنه كسب المائتى جنيه وخسر حياته وماء وجهه ولكن أكان ذا حياة أو كان لوجهه ماء حتى يخسره ، أنه لم يخسر شيئا فهو يعلن فى بساطة أنه بلا كرامة ومن يعلن مثل هذا الإعلان لا يبقى له شئ يحافظ عليه إلا المال .

كانت هذه القصة فى السنوات الأولى من الخمسينات . وقد نسيتهما فيما ينسى الإنسان وإنما أذكرها كلما كررت الحياة أمام عيني تبجحا أو سقوط الكرامة قريبا مما أشهدهني ذلك البك الثرى . ولكنى واثق أن الحياة لم تلق أمام عيني مثلاً له حتى كانت الأيام القليلة الماضية وروى لى أحد الناشرين الشرفاء قصة عن كاتب كان يتعامل معه أعادت إلى ذهني صورة تلك الجبلية التى بليت بمعاملتها منذ قرابة ثلاثين عاما . قال الناشر أنه تعاقد مع الكاتب على نشر بعض كتبه ودفع له مقدم العقد وبدأ يطبع الكتب . ولكن الناشر فوجئ بأن الكاتب تعاقد على نفس الكتب مع ناشر آخر فى نفس الوقت وقبض منه مقدم العقد فقصد إلى الكاتب يسأله عن صحة ما بلغه فأكد له الكاتب أن ما بلغه وقع فعلاً - أهذا يصح ؟ وإذا بالكاتب التقدمى يقول له فى هدوء وبساطة - عليك أن تعاملنى على أنى ابن ... بلا قيم وأخلاق ، وروع الناشر بما يسمع وقال له - وأنا لا أعامل ابن ... بلا قيم ولا أخلاق - وتركه وانصرف .

وهكذا وجدت فى هذا القصة مهانة للإنسانية أعظم من تلك التى شهدتها من البك الثرى . فإن الجبل قد يصلح مبرراً لهوان البك ولكن ما المبرر للكاتب التقدمى المثقف وهو من ناحية الثراء موفور لا يحتاج إلى صباية من مال وإنما يرتكب هذا الذى يرتكبه لأن نفسه لا ترى بأساً أن يفعل .

وقد يجد الكاتب من يقول عنه مدافعا أنه لا بأس عليه أن يكون بلا أخلاق ما دام يقدم فنا وأن التاريخ ليذكر لنا كتابا مثله وشعراء ولكنهم قدموا فنا مازال باقيا على مر العصور وقد يذكر المدافع في هذا المضمار بودلير وأوسكار وأيلد وأبانواس وغيرهم وغيرهم كثير ولكن هذا الدافع ينهار إذا ذكرنا العهد الذى كان يعيش فيه هؤلاء الكتاب وما أصبح الكاتب يمثل اليوم . فلو أننا ألقينا نظرة على التاريخ لعرفنا الفارق البعيد بين مكانة الشاعر والفنان في ذلك الحين وبين مكانته اليوم . فالشعراء في الأمة العربية كانوا يعيشون على جدوى الحكام والأثرياء وكانوا يصطنعون المديح ليجدوا قوت يومهم وقوت عيالهم فإذا لم يستجب لهم الأمير أو الثرى أو صاحب النفوذ أوسعوه هجوما وذمًا وحسبنا أن نذكر المتنبي وموقفه من كافور وغيره من حكام ذلك الزمان .

وفي فرنسا يكفى أن أذكر موقف الكونيتسة التى كانت تأوى لافونتين في بيتها ليجد ما يطعمه . ولكنها كانت تعيش تعتبره حلية تباهى بوجودها في بيتها كأنه قطعة أثاث نادرة أو تحفة فنية لا تزيد على صورة على الحائط أو علبة نشوق جميلة الصنع حتى أنها سئلت يوما من ستصحين معك إلى مصيفك . فأجابت - لأأحد كلبى ولافونتين .

وهكذا نزلت بالكاتب العبرى إلى مرتبة الكلاب .

وذلك عصر لم يكن الكتاب فيه أصحاب فكر إلا من كان منهم قادرا على مواجهة الحياة دون عون من صاحب ثراء أو صاحب سلطان . أما العصر الحديث فقد رفع الكتاب إلى مكانة سامقة في المجتمع وأصبح المسرح والسينما والإذاعة والتلفزيون يدرون على الكتاب في البلاد المتقدمة ما يجعلهم يعيشون عيشة رغدة وسعادة وبلهنية . أما في البلاد التى

- ١٠٧ -

تمائل بلادنا فإن الكاتب يستطيع أن يكون مكفول الرزق في غير ثراء نعم
ولكن في غير حاجة أيضا أن يبيع قلمه أو ضميره . ومهما يكن الأمر فهو في
غير حاجة أن يكون كما وصف ذلك الكاتب نفسه . بل أن كتاب ذلك
الزمان الذي كان الشعراء فيه يستجدون العيش وكان الكتاب فيه مقتنيات
في قصور الأثرياء لم نسمع أن كاتباً فيه أو شاعراً وصف نفسه بهذا الذي
يراه الكاتب الذي نروى قصته في نفسه . ولكن ما دام قد ارتآى أن هذه
هي حقيقته فهو من هذه الناحية ومن هذه الناحية فقط أعلم الناس بنفسه
وإن كان في غير هذا أجهل الناس بنفسه ، ما دام الأمر كذلك فإن لهذا
الكاتب أن يصنع ما يشاء فلا حساب له . وقدما قال الشاعر
من يهن يسهل الهوان عليه ما الجرح بميت ايلام

بالبته كانت أجازة

يظل الإنسان في الدول المتحضرة حائرا حتى يصدر قانون يتصل بموضوع حيرته، فيجد فيه الهدى من الحيرة والطريق للأقوم. من الضلال والنور من بعد، الظلمة والوضوح من بعد الأيهام .
.. إلا في مصر وهي أعظم دولة قانونية في المنطقة صدر فيها القانون المدني وقانون المرافعات فإذا أغلب الدول العربية تأخذها بنصوصها ليكونا هما القانونيين السارين بين ربوعها في المدني والمرافعات ويصل النقل إلى أقصى مداه حتى لتنتقل إحدي الدول مادة من قانون المرافعات تنص على أن محكمة القاهرة هي المختصة بنظر الدعوى فإذا المشرع الذي ينقل القانون للدولة العربية يضع المادة كما هي ويذكر أن محكمة القاهرة هي المختصة ولم يتنبه الناقل أن يجعل المحكمة المختصة محكمة العاصمة للدولة التي ينقل لها القانون .

والدساتير في أغلب الدول العربية وضعها مشرعون مصريون وعلماء القانون في أغلب الدول العربية مصريون . ولا يزال المحامون المصريون هم المرجع الأول والمترافعين في القضايا الكبرى في الدول العربية .
ومع كل هذا فإن الاضطراب القانوني الذي تعانيه مصر لا مثيل له في العالم الذي يسود مجتمعه قانون ما ، فقد أصبحت القوانين باخرة تصدر في سهولة ويسر لم يكن القانون يتصورها في يوم من الأيام وقد أدى هذا إلى صدور القوانين وهي لم تنضج بعد فما تلبث عند الأعمال أن يتبين نقصها فيعدل النقص بقانون ويعدل التعديل بقانون وهكذا دواليك حتى

أصبحت غابة القوانين اليوم مستغلقة على القاضى والمتقاضين جميعا
فالقوانين اليوم حيرة من الهدى وضلال عن الطريق وظلمة من بعد نور
وإبهام من بعد وضوح .

وما هذا بعجيب فحين ارتفع شعار القانون فى أجازة كان شعارا
مضحكا لا لأن القانون أعطى أجازة ولكن لأن القانون أصلا لم يكن
موجود يمنح أجازة ، فالأجازة لا تمنح لمعدوم . وهكذا لم يكن عجيبا أن
أسمع قصة عن أحد وزراء ذلك الزمان تأكدت من حقيقتها بحكم مهنتى
كقصاص ورواى فهذه القصة كما سمعتها وكما سأرويها لكم ليس من شأنها
أن تختلق اختلاقا أو تصنع صنعا فإن لم تكن قد وقعت فعلا فإنه يستحيل
على العقل البشرى أن يتدعها يقول وزير ذلك الزمان . أن مجلس الوزراء
اجتمع فى يوم من الأيام وكان يرأسه رئيس جمهورية عهد الطغيان . وكان
ضمن الوزراء وزير جديد يحضر أول جلسة فى مجلس الوزراء .
وبدأ الرئيس يعطى أوامره بشأن مسألة مالية معينة ، فحين انتهى من
إصدار الأوامر وحين هم بأن يواصل حديثه فى موضوع آخر قاطعه الوزير
الجديد فى براءة الأطفال .

-- ولكن الذى تقوله سيادتكم مخالف للقانون .

ونظر إليه رئيس العهد فى دهشة بالغة . .

ماذا تقول . . .

وظن الوزير فى صدق المستشارين وأساتذة الجامعة .

إن الرئيس يريد أن يعرف القانون الذى يخالفه بأوامره فبدأ يقول :

— المادة .

- ١١٠ -

ولم يكمل لأن رئيس العهد تحول عنه والتفت إلى الوزراء الآخرين في دهشة بالغة وما يزال وقال لهم :
- يقول إليه الجدد ده .

وسارع الوزراء يقولون في جمل يقاطع بعضها بعضا .. إن الوزير جديد ولا يعرف بعد ما يجري عليه العمل وراح رئيس العهد يكمل أوامره حتى انتهى منها وقف يتنهدا للإنصراف حتى إذا بلغ الباب وقف والتفت مرة أخرى إلى الوزراء وقال لهم :
- وغيروا القانون علشان أخينا ده يستريح .
وانصرف .

وقد كنا تعلمنا في كلية الحقوق أن القانون لابد أن يتسم أولا بالثبات والاستقرار أما القوانين التي تتغير بأوامر الحاكم فهي ليست قوانين وإنما هي أوامر كان يطلق عليها في عهد محمد علي ومن قبله فرمانات ولعلها كلمة تركية أو هي كذلك على الأرجح وفي ظل الأوامر والفرمانات ينعدم القانون تماما لأن القانون إنما يصدر للكافة وهو يقيد الحاكم قدر ما يقيد المحكومين فإذا لم يكن كذلك فهو معدوم .

فالقانون إذن لم يكن في أجازة لأن الذي يخرج في أجازة إنما يخرج لمدة معلومة محددة طال هذه المدة أم قصرت ولا بد قبل هذا أن يكون موجود وليس متلاشيا بغير وجود فهذه الأجازة إذن لو وقعت لكانت أملا لأنها تعني في ثناياها أن الغائب قد يعود . ولا شك أن العودة للقتل أمل عند أهله . وقد كان القانون آنذاك قتيلا .

- ١١١ -

وكثرة القوانين طريقة من طرق قتل القانون ولكن الذى لاشك فيه أن القوانين الأصلية لمصر عظيمة . ولاشك أيضا أن هناك فى حياة مصر أمورا جدد بعد صدور هذه القوانين تحتاج إلى مواجهة ولاشك أيضا أن طبيعة الحياة بعد زوال الطغيان تحتاج إلى إعادة النظر ولهذا أتمنى أن تهتم وزارة العدل بتكوين لجان من الفقهاء فى القانون المدنى وقانون المرافعات والقانون الجنائى وقوانين الإصلاح الزراعى لتنظر فى كل ما صدر من قوانين فى الفترة الأخيرة وتوائم بين هذه القوانين حتى لا يتعارض قانون مع قانون ولا مادة مع مادة ، فأنى اعتقد أن الحالة القانونية التى تواجهها القوانين اليوم تشبه الحالة التى نعيشها فى المياه والكهرباء والتليفونات وإن كان إصلاح هذه المرافق يحتاج إلى مال فإن إصلاح الإضطراب القانونى لا يحتاج لغير الجدية فقط ومع أننى اعتقد أنها عملة أكثر صعوبة فى الوجود من المال والعملة الصعبة إلا أنها فى نفس الوقت ليست مستحيلة على أولى العزم والله يوفق العاملين الجادين إلى أحسن سبيل وأقومه .

من طوايا الحياة

ماذا أصاب قومي في مصر؟ أين الأيام الخضر؟ وأ
العذب وأين ذلك الإشراق المضيء. وأين انطلاق الحديد
قلب إلى قلب ومن صديق إلى صديق ومن ابن إلى أبيه
إبنه، ومن أخ إلى أخيه. بل أين المودة بين الزوج والز
الذكريات والآمال، حتى الحب الجديد أصبح لا يولد
ولا هو اليوم يعرف ذلك الاندفاع المتدفق لا يعوق. دهاء
مانع أن يمسك عنانه. أين هو هادرا صاحبا. وأين هو
سلسل الجرى لؤلؤى المياه. يجري في ضفتيه لأنه حب
. يالشقاء الحب في وطني اليوم. الضفتان اليوم مال جاء
عن مسكن بعد أن نضبت المساكن في بلدى. لا هدير
هو معتقل في حبال شديدة الأسر من التفكير المذكور من
يبعث عن فتاه تكون ذات مال. أو ذات عمل. ولم
عن هواه وحبه في شريكة الحياة التي يريد الله أن تكون ل
لا مسكنا ومودة لا منفعة.

أصبح يريد لها الفتى ذات شقة لا ذات عاطفة وذ
رقة. ماذا صنعت بك الأيام يا بلدى.. أين أنسام الذ
وساحة. أين انطلاق الريف هناءة وجالا ما للريف اليوم
المال. وزبحر عن صوت العصر العنيف الصارم. كانت الر

صفاء ونعومة . فأصبح يقضى الأيام قضم نوحوش ويكسرها ونحطمها فلا
النأى يعزف فى ريفنا ولا الآذان تصغى إلى شدة الكروان والبلبل
والعصفور ولا النديم فى ريفنا يعرف ندماء ولا حلقات السمر فى أمسيات
الحقول تتحلق تضيئها ألسنة اللهب من نار كنار ابراهيم فهى برد ودفء
وهى سلام لا يحرق وإنما يشيع فى نفوس البشرية حوله طمأنينة وهناء
وقدسية الأطناب إلا من وسادها وحب الله والناس وجميع المخلوقات
عمادها وأركانها .

ماذا صنع بك الحقد يا ريفنا أين أريجك المعطار وأين أديمك المسماح
وأين أجواؤك - التى ما عرفت إلا الحب والنقاء والسعادة والصفاء .. ماذا
صنع الأمس باليوم استطاع الحقد الآخذ الويل أن يعصف بجمالك هذا
كله يا مصر .

ماذا صنع الأمس باليوم وكيف استطاعت السخائم السود القائمة أن
تسحب الغيوم والسحاب الكثرة وثبتها على أقطار بلدى وفى أنحاء سمائها
التي كانت صافية مؤرخة بالعطر النقي والهواء الشريف . ماذا صنع الأمس
باليوم . كيف استطاعت الكراهية والبغضاء الحقد أن تبدد أنوال الحب
فى نفوس المصريين وقد كانت من قبل تنسج الهوى والتعاطف والرضا
والكبرياء فى غير صلف والعزة فى غير تعجرف والأمانة فى غير افتعال ،
والترفع عن الدنيا والبعد عن الصغار والعزوف عن الآثام فى طبيعة مواتية
وفى سجية نقية بيضاء .

أين أيام كان الابن يذوب طربا إذا سمع صوت أبيه وتسبح نفسه إذا
سمع دعاء أمه . أين أيام كان الأخ للأخ عوناً والأخت لأخيها إبتسامه
هوى موصول لا تشوبه على الأيام شبائبه . هل استطاعت سنوات الحقد

العجفاء القائمة السوداء أن تشق الابن عن أبيه وتثنأى بالفتى عن دعاء أمه وتجعل الأخ عدوا لدودا والأخت لأخيها ناهية للميراث الذى كان إليه سيؤول .

أضعيف هو الحب ؟ ... أم قوى هو الحقد ؟ أم أن الأمر ادهى : من ذلك وأمر .

اترى الخير والستر انسجبا من طوايا الحياة ومن وشائج القرى ومن ثنيات الصداقة فانكشف الوادى الأخضر الفسيح بالرضا عن غابة حمقاء مسعورة رعاياها ذئاب بشرية يأكل بعضها لحوم بعض فى غير رحمة ولا شفقة . ومن أين وطيوف الإنسانية قد رحلت هى أيضا مع سماحة الخير ومع كرامات الستر الحبيبة .

لقد دخل الخوف بلدى فى السنين العجاف والخوف سريع محتاح حين يدخل بلدا . ثم هو عند الارتحال متلكئ وبطئ .. ثقل الخطى . والأمر بعد ذلك ليس ميسورا فهو كلما هم بالخروج من بلدى اجتاحتها عاصف بعيد الخوف إلى الفرائص والذعر إلى النفوس وهكذا استقر الخوف فى السنوات الأخيرة يطفئ شموع الأمن ويحطم أركان السكينة .

تمثل يوما فى قرارات اقتصادية خرقاء دمرت الاقتصاد بعد أن كان يوشك أن يستقر . وكان علاج هذه القرارات بطيئا فازداد الأمر سوءا . ومازال الخوف يظل اقتصادنا حتى اليوم . المال المصرى يخشى الخروج إلى النشاط ، والمال الأجنبى يخشى الدخول إلى مصر ، والمصريون فى الخارج حبسوا أموالهم فى البلاد التى يعملون بها بعد أن كانت تنثال فى رضا وطمأنينة إلى المصارف المصرية ، وتمثل الذعر فى الأصوات الناعقة من الشيوعيين نشروها فى كل مكان من أركان الإعلام فهم فى الصحف

القومية لهم صفحات ومقالات وصولات وجولات هم في التلفزيون يوشكون أن يستولوا على الأركان الأدبية فيه لم تفلت منهم إلا الأحاديث الدينية وهم في الإذاعة يرحون ويسرحون لهم برامج ثابتة ولهم في كل حين حديث أو لقاء . والأجهزة جميعها حريصة على أن تسترضيهم حتى لأعلم أن بعض الأحاديث التي تناقش نظريتهم منعها الإذاعة أن تخرج على الهواء ، وليس انتشار الشيوعيين بالأمر الهين فالأضرار الناتجة عنه أخطر مما يتصور المسئولون فإنهم بصيحاتهم هذه لا يخيفون المؤمنين . فنحن واثقون من أن الشعب المصري لن يلتفت إليهم ولن يأبه بهم . ولكن الخوف كل الخوف أن تخيف أصواتهم رؤوس الأموال في خارج مصر سواء كانت مصرية أو أجنبية . فليس في العالم شئ أكثر جبنا وحذرا من المال . وهيئات المال يأتى إلى دولة يعلو فيها صوت الشيوعيين .

وهكذا يزداد الخوف تمكنا في ربوع مصر ويأتى أن ينقشع ويتحدث الناس بصوت جهورى مرتفع فالتناس في بلادى لم تعد تهمس وليس خوفهم اليوم من الحاكم فرئيسنا اليوم أعظم الرؤساء سماحة وبعداً عن العنف والجبروت وانما الناس تخاف من الأيام ومما يأتى به الغد .

ويزداد الخوف رسوخا في نفوس الناس ثم يقوى ويشتد فيما يراه أخيرا من ظهور وجوه كانت اختفت يوم اختفى عنا عهد الطغيان والاعتداء على الأعراض والحريات والأنفس والأموال فقد علت باخرة أصوات الفئة الباغية وعاد إلى النعيق على نخل بلدى غربان الخراب والهزيمة الماحقة في كل الحروب تضيف على القمة الخائبة منها ٦٧ علامة لا يمحوها الزمن لعواقب الفساد والسرقات والاعتداء على إنسانية الإنسان وتحطيم الحرمات التي أمر الله أن يراعيها الحاكم في الرعية . عاد عواء الذئاب فهاج جميع مكامن الخوف في نفوس المصريين . ويقول كاهنهم الأكبر للناس أنه بغيره

لن يكون قرار ما حكيما . وكأنه ما كفاه ما شارك فيه من قرارات كانت كلها خرابا مازالت مصر تعاني منه . حتى يومنا هذا وستظل تعاني منه لسنوات أخرى قادمة .. الله وحده يعلم عددها . هذه الجوقة التي تمثل السرقات بادئة من مجوهرات أسرة محمد على إلى آخر من صودرت أمواله أو وضع تحت الحراسة والتي تمثل الهزائم المتوالية يبدأ من ٥٦ مرورا بحرب اليمن إلى انفصال سوريا إلى ٦٧ . عادت إلى الظهور مع عازفها الأول ولا يجد الناس مفرعا إلا القرآن الكريم أمنهم عند الكريمة ومغازتهم عند الذعر وجنتهم عند الملمات .

ويذكرون أن هذا العهد جميعه لم يكن يؤمن بالله ولا باليوم الآخر وأنه ليس ممن قال عنهم الله سبحانه وتعالى وبالأخرة هم يؤمنون . وهم واثقون من كفر العهد ورجاله ليس مما فعل العهد ورجاله بالبشر فحسب وإنما بنص ما جاء صراحة . في كتب كاتب العهد وكاهنه الأكبر . ويستجيب القرآن الكريم لفزع الناس وكيف لا يستجيب لهم الله وهو قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه . وتأتي الآية ١١٨ من سورة آل عمران « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » « صدق الله العظيم » والناس تعلم أن القائمين على الأمر اليوم من هؤلاء الذين يعقلون وأن رئيسنا من هؤلاء الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه .

وتتجمع هذه المشاعر جميعا وتصخب في نفوس الشعب . ثم تنفجر فئة باغية جاهلة حمقاء تحرق أمن مصر وآمالها في جنون أرعن مافون وتبحث مصر عن السبب أو الدافع فإذا هي تجده في جيوب الخونة المخابيل متمثلا في مبالغ متشابهة ذات أرقام متتالية تصيح بأعلى صوت لها أن

أعداء مصر في الخارج قد أعطوا أوامرهم لأعداء مصر في الداخل وشفعوا الأوامر بالأموال واستغل هؤلاء جرائس أمننا ولا الأمناء على الطمأنينة في بلادنا واستغلوا جهلهم ولا أقول فقرهم وغباءهم ولا أقول ضيقهم وصنعوا منهم قذائف حرقت أول ما حرق أمن مصر والثقة التي تمكنت أن تشيعها في نفوس العالم حولها .

وترفض مصر أن تصدق ما رفعوه من سبب لعدوانهم فلو كان ما أعلنوه ذا صلة بأى نوع من الصدق لكان من الطبيعي أن تكون وسيلتهم وهم رجال الأمن المجندون متمثلة في شكوى يقدمونها أو تظلم يحمله عنهم قوادهم أو أى سبيل آخر يتفق مع الخلق . ولكنهم لم يفعلوا ذلك وإنما أذهلهم الأموال التي تسربت إليهم في خفية عن مصر وأصبحوا قنابل تحرق مصر مصرهم التي رضعوا لبنها وتغياوا ظلها والتي لا ملجأ لهم إلا حقولها ومغانيها ولا مشرب لهم إلا نيلها إن تكن سنة قد زيدت على تجنيدهم وهم بها ضائقون فلإى أين يريدون أن يتجهوا إذا لم تزد إن لم يتجهوا إلى مصر التي يحرقون . لا ليس زيادة سنة صحيحة كان أمرها أو كان إشاعة بالسبب الذى تقبله مصر . إنما هو الخيانة والرشوة ومصر تتساءل اليوم إن كان الذين قبلوا الرشوة جهلاء حمقى فأين كان رؤسائهم وهو سؤال ضخم وكل إجابة عليه محزنة تمزق النفس حسرة وألماً وذهولاً فاجعاً . مدمراً . والعجيب العجيب وفى نفس الوقت العظيم العظيم أن شعب مصر الذى يتحمل ما يتحمل عن عناء هو الذى يقمع الخونة ويصدهم ويرفض فى إجماع منقطع النظر إجرامهم . إن هذا الشعب الطيب هو النبت الصالح الذى يخرج من الأرض الطيبة وأن أرض مصر العريقة عراقه الزمن لا يمكن أن تنبت إلا هذا الشعب النبيل وصدق الشاعر
وهل ينبت الخطى إلا وشيعة وتزرع إلا فى منباتها النخل

الذكرى ذات نفع عميم

ليس في العالم أجمع نظام كامل . ولذلك قيل أن الديمقراطية هي أقل الأنظمة عيوباً فالديمقراطية هي أكثر الأنظمة إتاحة للحرية وفي ظل الحرية تكثر الأخطاء ونجد من يستغل الديمقراطية للسرقة والتحايل على القانون والاستيلاء على الأموال بالباطل . وحين تخرج دولة مامن فترة ديكتاتورية إلى فترة حرية تصبح هذه الجرائم بشعة المظهر أمام شعب لم يتعود أن يسمع بمثلها في فترة الديكتاتورية . وينتهر أعداء الديمقراطية الفرصة فيجعلون هذه الجرائم وكأنها عجيبة من عجائب الزمن لا مثيل لها في الدول الأخرى ولا في التاريخ . والحقيقة أن هذه الجرائم تعرفها كل الدول الديمقراطية وتصدر أحكام القضاء ما نعة رادعة فتجعلها تتناقص مع الزمن حتى تصبح الحياة طبيعية .

ولم يحدث أن توقفت هذه الجرائم في أي دولة ولكن الذي يحدث أن تقل ويصبح شأنها شأن أي جريمة أخرى . ومن مظاهر الديمقراطية أن تكون الفرصة متاحة للجميع فالديمقراطية تبيح لكل اناس أن يصحبوا أثرياء ولهذا تدهش الدولة التي فرضت عليها الديكتاتورية حين تجد المال قد انفجر في شكل فاجر في ايد لم تكن تعرفه إلا في صورة جنيات ضئيلة تقيم الأود أو تكاد . وهؤلاء الأثرياء الجدد يتمثل الثراء عندهم في السيارة الفارهة في الطعام المرتفع السعر حتى ولو كانوا لا يسيغونه وفي الملابس الفاخرة حتى وإن غاب عنه الدوق . ويشهد الناس من شأن هؤلاء عجباً ولكن ماهي إلا سنوات قلائل حتى يتعود الاثرياء الجدد على الثراء .

ويعرفوا أن قنوات الصرف الكريمة شيء آخر تماما غير هذه السيارة وذلك المأكل وهاته الملابس . ونحن اليوم نعيش فترة الانهار بالانقلاب الذى أحدثته الديمقراطية فى المجتمع . وينتزه الشيوعيون ودعاة القهر والانغلاق الفرصة فتنهال أقلامهم وألسنتهم بالذع الشائم على الانفتاح .

وهم طبعاً يدركون تماماً أن هذا الانفتاح هو الذى أتاح لهم حرية التعبير العارمة التى يمارسونها ويدركون أنهم فى زمن الديكتاتورية كانوا يعدون انفسهم ويحبسون لهاثم خشية أن يسمع الحاكم هذا اللهاث فينزل بهم ما عرفوه كل المعرفة من اعتداء على العرض والحياة والمال وهذا طبعاً بعد أن أغلقت دونهم منافذ الحرية جميعاً .

هم يدركون هذا كل الإدراك . ويدركون أنهم لو عادوا إلى الديكتاتورية فمصيرهم السجون التى احتوتهم حيناً كبيراً من الدهر ومآلهم النفى مصفدين بالحديد إلى مجاهل الصحراء وفيافها .

هم يدركون ولكنهم يدركون أيضاً أن حاكم مصر اليوم رجل إذا قال فعل ، وإذا وعد أنجز وإذا واثق أوفى . وإذا عاهد صدق . وقد قال لاربعة عن الديمقراطية فهاهم إذن ومذهبهم خسيس لا يستغلون الوعد الصادق والعهد الوثيق ويثيرون الدنيا مهاجمين الانفتاح وهم يعلمون كل العلم أنهم حينئذ يهاجمون الحرية والديمقراطية . وما البأس عليهم فإنها هى الديمقراطية التى يريدون أن يهاجموها وهى التى يبغضونها كل البغض إذا هم كانوا الحاكمين لكنهم يتغنون بها ويتناشدون بمآثرها إذا كانوا محكومين حتى يتمكنوا بها من الحكم ثم يقتلونها .

وهم حين يهاجمون الحرية يبحثون عن ألفاظ أخرى يهاجمونها بها وهكذا اختاروا فى مصر كلمة الانفتاح ليجعلوا منها سخرتهم ويسدوا

إليها سهامهم وقد ينجاريهم في جسد أبياتهم المنتجون في السينا والكتاب الصغار في التلفزيون والمهازيل من أصحاب الأقلام الضائعة في الزحام ويتعالى الضجيج ويزداد التصايح تعالوا فانظروا ماذا صنع ولو كان هؤلاء التابعون على أقل حظ من الذكاء لأدركوا أنهم أنفسهم يهاجمون أنفسهم فالمنتجون بما يهاجمون يفتلون دون جيوهم الثراء الذي انهمر عليهم والكتاب بما يكتبون يغلقون دون أقلامهم الحرية التي تمرح فيها .

ولكنهم تبعوا وما فكروا وقالوا وما تدبروا . وقلدوا وما عقلوا وصاحوا ولم يتذكروا . وإن الذكري لذات نفع عميم لمن كان ذا فهم ليب . لو أنهم طرحوا أذهانهم إلى عهد الطغيان لوجدوا أن هذه السرقات كان يقوم بها الحكام وحدهم ثم هي تتخفى في أثواب الرعب والفرع فلا ينبس من يعرف أمرها بجرف عنها . وإذا سمع سامع من شأنها همسة نقض أذنه وغسلها خشية أن يرى الزبانية الباطشون على حواف أذنه أثرا ولو ضئيلا مما سمعته هذه الآذان .

ولو أنهم طرحوا أمام أعينهم ذكريات الماضي لاستطاعوا اليوم . . واليوم أمان وحرية . . أن يصرخوا أى داهية داهية كانت تحيط بنا . . وأين جواهر أسرة محمد على . ما قصة الحقيقة المليئة بالذهب ؟ كيف كانت العملة الصعبة تلتقي ذات اليمين وذات اليسار على ماسحى الأحذية ومقيل الأعتاب ؟ . . ما قصة سيارات النقل التي كانت تحمل تلال الفرو والسجاجيد . . ما شأن القصور الباذخة التي أنشئت في القاهرة والاسكندرية ؟ ما حديث الثورة المضادة وما انسكب سيولا من أجلها إلى بنوك سويسرا هذا بعض ما تصنعه الدكتاتورية وبعض ما يستره الطغيان إنه يؤم السرقة لنفسه أول ما يؤم .

- ١٢١ -

فاصرخوا اليوم ماشتم أن نسرخوا في عداء الانفتاح فلا .. لن نكون
بعد اليوم للطغيان عبيدا وإن رغمت منكم الأنوف ؟
والشيوعيون أقاموا من أنفسهم حراسا على القطاع العام . ولكنهم
حراس مضحكون لأن الدولة بكل أجهزتها لا تفكر مطلقا في الاعتداء على
القطاع العام . بل أن خبراء الاقتصاد من غير الشيوعيين يرون أن القطاع
العام هو الركيزة الأساسية في اقتصاد مصر اليوم .
وكل الدول ذات الاقتصاد الحر فيها قطاع عام في أمريكا قطاع عام
وفي إنجلترا وفي سويسرا وفي فرنسا حتى قبل حكم ميثران .
فلا أحد يقف عدوا من القطاع العام إلا جهة واحدة هي التي تحاول
أن تقضى عليه وتنسفه نسفا . هذه الجهة هي القطاع العام ذاته . وأن
الاحصائيات التي تقارن بين إنتاج القطاع الضخم وإنتاج القطاع الخاص
الذي يعتبر ضئيلا بالنسبة إليه لتدل دلالة قاطعة على أن القطاع العام يخرب
القطاع العام بما لا يستطيع أن يصنعه به أى عدو شرس ذى أنياب
وأضرار وسلاح . فإنتاج القطاع الخاص يكاد يماثل إنتاج القطاع العام
ولا صلاح لنا إلا بأن نعيد النظر في القوانين التي تحكم هذا الصرح الضخم
في اقتصادنا فلو اجتمع كل الخبراء الاقتصاديين في العالم لعجزوا أن يقيموا
المنهار منه إلا إذا كانت هناك قوانين عادلة تحكمه فيها العقاب وفيها الثواب .
وفيها العالة على قدر العمل . أما إذا ظل الأمر على ما هو عليه سائبا بلا
رقيب ولا حسيب فلا أمل على الإطلاق .
لا أمل والعامل لا يعمل . وهو لن يعمل إلا إذا عرف أن العقاب
سينزل به إذا أهمل والثواب سيقدم إليه إذا أحسن عمله . ولا أمل والعمل
الذى يستطيع أن يقوم به إثنان يعين له عشرات .
أما في الدولة الشيوعية فتصل عقوبة العامل المهمل إلى حد الموت مرة

- ١٢٢ -

بالنفي والفصل والتعذيب والسجن . وأما في الدول الرأسمالية فالفصل يقف بالمِرصاد للعامل الذى لا يعمل . ونحن وحدنا وليس غيرنا الذين لانعرف لنا نظاما اقتصاديا واضح المعالم ذا نظرية معروفة الملامح . فلانحن نأخذ بالنظام الاشتراكى ولانحن نأخذ بالنظام الحر . ولا نحن عرفنا النسب السليمة للمزج بين النظريتين . تلك النسب التى عرفتها إنجلترا والسويد ويوجوسلافيا والنمسا وبولندا .

هناك دول تتخلص من السيطرة على مرافق الدولة وها نحن أولاء تطالعنا الأنباء أن اليابان باعت مصلحة التليفونات للقطاع الخاص وقد تم هذا البيع بالقطع بعد موافقة كل المنظمات السياسية والاقتصادية . وهناك دول تتوسع فى السيطرة على مرافق الدولة مثل فرنسا . وكل دولة فى العالم تعرف النظام الذى يحقق لها أكبر قدر من الإلتعاش معتمدة دائما على نظريات ثابتة لا تحتل الجدول .

إن زمن صناعة النظريات الجديدة قد مضى والدول اليوم تمارس تطبيق النظريات الثابتة التى مكن لها التاريخ أن تصبح نظرية . إلا نحن فإننا نحاول - وهيئات لنا أن ننجح - أن نخلق نظرية اقتصادية ما أنزل الله بها من سلطان .. ويعلو ضجيج الشيوعيين ويسيطرون على وسائل الإعلام بما لهم من تجمع فيتوه الحق والنظام الأصلح فى ضجيج الغوغاء والشعارات الجوفاء .

ونحن نخشى أن نقدم على الخطوات الصحيحة حذرا من الصيحات المغرضة الرعناء ولكن الأمل تبدو بشائره . ومطالع النور تلوح فى الأفق فهل ترى آن لنا أن نتظر شروق الحق وغروب الباطل .. ومالنا لانرجو وقد قال سبحانه وتعالى « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » صدق الله العظيم (سورة الرعد الآية ١٧) .

الله خير الماكربين

توالت الخطابات إلى تبارك ما كتبته عن الشيوعية والشيوعيين .. تحمد لى ما أذعته عن استيلائهم على وجه الإعلام المصرى .. وإنه لشعور طيب أن يشعر الكاتب أن ما كتبه إنما هو تعبير عن مشاعر قومه وأن كتابه خطاب تدل في ذاتها على التحمس والإصرار أن يبلغ القارئ رأيه الى كاتبه .. ولكن أهم ما جاء في هذه الخطابات التي نشرت منها خطابا واحدا أن مصر أطلقت بما كتبت آهة كانت مكبوتة في جنبات شعبها . فقد رأوا سنوات الستينات تعود بوجهها الكثيب البشع المليء بالبور وبالرعب وبالجهروت وبالطغيان واستعباد الإنسان وتحطيم كل المعاني الرفيعة في الحياة .

وأنا حين أكتب ما أكتب لا أرهب الشيوعيين ولا أقول ولا أحفل ولا يعنيني أمرهم أقل عناية . وإنما خشيتي أن يصبح وجه مصر أمام الداخل رعبا وينصب على الشعب الذى عانى ما عانى من ألوان الخسف رهب أن يعود الخسف إليه ويصبح الإنسان المصرى مرة أخرى يتلفت حواليا قبل أن يلتقط شهيقا أو يخرج زفيرا .

وأخشى وتلك خشية وقعت حقيقة أن يمتنع أبناء مصر الذين كانوا قد آمنوا لبلادهم واطمأنوا إلى مصائر أموالهم فيها عن إرسال أموالهم إلى مصارف مصر كما كانوا يرسلون .. وكيف يأمنون أن يرسلوا هذه الأموال من الاضطراب الاقتصادي الذى وقع بمصر والذى باركه الشيوعيون وأحاطوه بألوان التهليل التي يجيدونها كل الإجادة .. حتى إذا انحسر الاضطراب

اليوم وبدأ الاقتصاد المصرى يعود إلى شئ من الطمأنينة ظلت أبواق الشيوعيين التى تملأ الصحف القومية والتى تسد أقطار التلفزيون وميكروفونات الإذاعة تثير الذعر والخوف فى نفوس المصريين فى الخارج وتزجرهم أن يرسلوا أموالهم فهم فى بعدهم لن يعرفوا أن هذه الأصوات ما هى إلا عويل الشيوعيين وصراخهم مجتمعا فيندو كأنه صادر عن الكثرة وهو فى الحقيقة يمثل هذا الحزب الذى تقدم إلى الانتخابات فلم ينل مقعدا واحدا فى مجلس شعب أو مجلس شورى .. والذين يعيشون فى خارج مصر يقرأون الصحف وبعضهم يسمع الإذاعة وبعض منهم يشاهد التلفزيون . وهم يعرفون أحوال بلادهم من هذه الوسائل فهم حين يقرأون الصحف فيجدون الصوت الشيوعى هو أعلاها نغمة ويحذون الشيوعيين يطلون عليهم بوحشية من كل الصحف وحين يسمعون الإذاعة فيجدون التمثيليات كثيرا ما تنبعث عن الفكر الشيوعى المادى الديكتاتورى وإذا رأوا التلفزيون وشاهدوا التمثيليات التى أصبحت ولا عمل لها إلا مهاجمة الحرية الاقتصادية والدعوة الصريحة حيناً والمتكررة أحيانا إلى عهد الإنغلاق والكبت والجبن والستار الحديدى وهم يشاهدون تمثيلية تمجد باقتصاد مصر .. ولئن يكون ذلك والشيوعيون هم أئمة الإعلام المصرى فإن هؤلاء لا أمل لهم إلا خراب مصر ساء ما يأملون . وكره الله ما يبتنون وإنه سبحانه لما نكر بهم فحيط ما عليه يتآمرون والله خير الماكرين .

هزيمة ٥٦ التى نال بها اليهود شرّم الشيخ ولا تذكر شيئا عن نصر ٧٣ الذى رد إلى العرب كل العرب كرامتهم والتى قدم فيها الجيش المصرى بعون الله القدير المتعال معجزة بعد أن انتهت عصور المعجزات والتى دبر لها وقدر وأمر بها الزعيم الخالد على مدى الزمان أنور السادات حين يشاهدون هذا

يحبسون أموالهم عن أن تشارك في الاقتصاد المصرى بعد أن كانوا سعداء غاية السعادة أن أموالهم أصبحت من العمدة الأساسية في خير مصر وفي سعيها أن تزيج ما تركه عهد القحط والخراب والمخبرات والاعتداء على الأموال العامة والخاصة وعلى الأعراض العامة والخاصة. أيضا .

فالذى يصنعه الشيوعيون في الإعلام المصرى ليس مجرد أصوات إنما هو وجه مصر يخشاه من بداخلها ويتصرف من بخارجها على أساسه . فليس الأمر مجرد مقالة أو تمثيلية فلو كان هذا كل ما ينتج عن صراخهم لكان الأمر ولما استحق منا أى تعليق .

فصّر لن تكون شيوعية أبدا . مصر ذات الآلاف من السنوات هي مهد الإيمان عرفت التوحيد أول من عرف وكل معابد الفراعنة صروح لإيمان مصر بالسماء وكل كنائس مصر صروح لإيمان الأقباط بالله والمسيح وعشرات الألوف من المآذن في أرجاء مصر من أقصاها إلى أقصاها حصون شاذخة شماء تدمر الشيوعية وتمزق أعلامها وتمحق أفكارها وتقضى على تدبيرها الخبيث .

فما أنا بخائف من هؤلاء المهازيل على مستقبل مصر في عقيدتها ودينها وديمقراطيتها وإنما أنا أخشى أن تكون أصواتهم هذه تخريبا لاقتصاد مصر في وقت لا تحتل فيه مصر أى مساس باقتصادها .

أخشى أن يداخل المشروعات التي أصبحت أساسا في الاقتصاد المصرى نوع من القلق فتقبض يدها عن التوسع والسعى إلى التقدم الفنى والعلمى . ولا أمل لاقتصاد مصر في التقدم العلمى والأخذ بآخر ما وصلت إليه المباحث الجديدة المتطورة في جميع فروع الحياة .

- ١٢٦ -

أخشى أن تهرب أموال تفكر في الدخول واخشى أن يشيع عن مصر أنها عادت دارا لا يأمن فيها المال ولا يطمئن في ربوعها المستثمرون .
وليعلم الجميع أن المستثمر إذا لم يربح فهو لن يقدم ماله فقد يتبرع شخص بملايين الجنيهات ولكن نفس الشخص لا يضع مائة جنيه في مشروع صناعي أو تجاري لا يدر عليه ربحا .
ولست أدري لماذا تعمل كل التمثيليات في التلفزيون على ذم الربح وأنه جريمة قتل والمسلمون منهم وغير المسلمين يعلمون أن الربح في التجارة عمل مشروع تباركه جميع الأديان بلا استثناء .
من حق التمثيليات بل من واجبها أن تهاجم الجشع .. أن ترفض الغش .. أن تحقق التحايل .. أن تشجب المنصب .
ولكن من واجبنا أيضا أن نبارك الرزق الحلال .. من واجب الأعلام بل واجبه الأول وقبل أى شئ آخر أن يث في نفوس العالم وفي نفوس المصريين الثقة بمصر .

رقم الايداع ٧٣٨٧
الترقيم الدولي . ٦ - ٠٢١٦ - ٠٨ - ٩٧٧ ISBN

مطابع النهضة مصر

مطابق نهضة مصر